د. خالد عوض
د. رامي عوض

سكشن 3

رواية

المصري للنشر والتوزيع

سکشن ۳

سكشن 3
رواية

د.خالد عوض البسيوني
د. رامى عوض البسيوني

تصميم الغلاف: كريم أدم
تدقيق لغوي : أحمد بكر
تنسيق داخلي: أحمد عويس
الطبعة الأولى: يناير 2018

رقم الإيداع: 25883/ 2017
i.s.b.n: 978-977-770-071-9

المصري للنشر والتوزيع

المدير العام: يوسف ناصف
٣٥ شارع أحمد ذكي – المعادي – القاهرة

+2 01146335098

elmasrypublishing@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر وأى إقتباس أو إعادة طبع أو نشر فى أى صورة كانت ورقيةأو أليكترونية أو فى وسيلة سمعية أو بصرية دون موافقة كتابية ,يتعرض صاحبه للمسائلة القانونية.

سكشن 3

د. خالد عوض البسيونى

د. رامى عوض البسيونى

إهداء

إلى أبى الذى أنتمى إليه ليس إسماً فقط ولكن موطناً أيضاً

وأمى التى بين راحتيها نعيم الدنيا وتحت قدميها جنة الآخرة

إلى ساره وصفاء ... النصف الحلو

إلى الصغار آدم ويوسف وياسين

تنويه هام جدًا

إن أحداث وشـــخصيات هذه الرواية من محض خيال الكاتبين.. وفرضية المكان والزمان هى ضرورة لاستكمال النسق الروائى لا غير.

ويؤكد كاتبا الرواية كامل احترامهما لقســـم الفارماكولوجى بكلية طب الإسكندرية وجميع أعضاء هيئة التدريس والموظفين بالكلية.

الفصل الأول

البداية

البدايات ليست دائما مبهجة وإن كانت البدايات المبهجة تروق لىّ

(1)

- إنتى إزاى حلوة كده؟!

قلتها لها فى رسالة إلكترونية على «الفيس بوك» حقا لا أستطيع منع نفسى من إبداء إعجابى بها كلما رأيتها تطلّ فى صورة جديدة على «الإنستجرام» بذاك الوجه الأبيض المضيء وتلك الابتسامة الفاتنة التى ترسم على وجنتيها البارزة ذاك الجحر الغائر الذى يسمونه غمازات، أشعر وكأنها ترمقنى، وتنتظر تلك الكلمات البسيطة التى أبدى فيها رغبتى فى رؤية ابتسامتها من خلف الكيبورد.

ربما لا أستطيع أن أعلن ذلك جهارًا فى تعليق على الصورة أوربما أنتظر ردًا منها لا يمكن أن تقوله على الملأ، ومع ذلك أتابع كل التعليقات، أرانى أبتهج لرأى صديقة لها تتغزل فى جمال طلتها أو أخرى تشيد بفستانها فترد عليها بـ«المهم اللى بيلبس» يثور شيء بداخلى عندما أرى تعليقًا من أحد أقاربها الشباب القليلين الذين حظوا بصداقتها على «الفيس بوك»، يحاول أن يكون خفيف الظل، فيترك تعليقاً ك«الله حلوة أوى.. البالونة اللى فى إيدك» وينتظر منها ردًا فى حين تكتفى هى بالإعجاب.

أنتظر دقائق تمر علىَّ كالجبال الراسيات حتى يبلغنى أن الرسالة قد وصلت إلى عيون قارئها أو ربما إلى قلبه، فأنتظر لحظات أشد حتى

يبلغنى ردهـــا الذى عادة ما يكون مقتضبًـــا، لكنه يحمل لى الكثير من المعانى.

- أشكرك..

هكذا كان الرد، ربما كنت أنتظر أكثر من تلك الكلمة ولكن يكفينى أنها اهتمت للرد على رسالتى، منذ رسالتى الأولى لها حين انتظرت قرابة الأسبوع حتى يبلغنى ردها، أسبوع لا أعلم كيف مرّ وكيف استطعت أن أمارس الحياة خلاله، يراودنـــى بين الفينة والأخرى هاجسٌ بأننى ســـاذج وأننى بالنسبة لها لست سوى معيد بالكلية، ربما أكون قدوة أو أخا أكبر، ولكنها لن تفكر فىّ بنفس الطريقة التى أفكر فيها. كنت أطرد هذا الهاجس فورًا، إذا كان الأمر كذلك فلمّا وافقت على طلب الصداقة الذى أرسلته لها، ولما تتابعنى نظراتها كلما مررت أمامها فى الكلية، لماذا ســـألتنى أنا دونًا عن أساتذتها، الذين يســـبقوننى بسنوات من الخبرة والعلم على حالة أمها الصحية، وتابعت معى أولًا بأول ما يطرأ عليها، لابد أنها تشعر بما بداخلى وتبادلنى نفس الشعور.

لكن علىّ أن أكون أكثر شجاعة، وأن أتحدث إليها بما فى داخلى، بلهفة أرسلت إليها أتزود من كلماتى السابقة:

- أنا مش بجامل على فكرة..

تلك المرة ردت مباشرة وكأنها كانت تنتظر رسالتى هذه..

- ربنا يخليك يا دكتور.

- أخبار مامتك أيه دلوقتى.. طمنينى عليها؟

- بخير الحمد لله.. أحسن.

- يا رب دايمًا.. كنت عاوز أقولك على حاجة.

- خير؟

هنا انتابتنى حالة من التوتر وتشوش التفكير، تُرى هل هذا هو المكان المناسب الذى أشرح فيه مشاعرى، وأتبين ردة فعلها، ربما كان أسهل وطأة أن أتلقى كلماتها عبر كابلات الإنترنت، إلا أن تلك الكلمات ستأتى جوفاء دونما أى إحساس، فالإحساس لا ينقل عبر تلك التكنولوجيا الصماء، على أن أواجهها مباشرة، ولكن ماذا لو ردت علىّ ردًا غير متوقع؟ ماذا لو أحرجتنى؟ إذا كان الإنترنت لا ينقل الإحساس صادقا إلا أنه أيضا يعفينا من الحرج، لم يدُم تفكيرى طويلًا فقد انفصل الجهاز مع انقطاع التيار الكهربى حاسمًا معه المواجهة ومؤجلًا إياها.

حسنًا على أن أستعد للغد، ففى الغد مواجهة حاسمة، أخذت نفسًا عميقًا قبل أن أستقر على سريرى لا يقلقنى سوى دمسة الليل مع صمت المكان الذى لم يدم طويلا فقد عادت الكهرباء ومعها صيحات الصبية فى الشارع وفى المساكن المجاورة، على الفور قمت من مكانى فتحت حاسوبى وتابعت غيابها عن صفحتها على «الفيس بوك» بعد حديثنا بدقائق، أرسلت إليها رسالة اعتذار:

«متأسف.. الكهربا اتعودت تحرمنا من استكمال اللحظات الحلوة..

فخدت هى قرار إنهاء المحادثة بيننا مؤقتا.. بكرة بعد السكشن إن شاء الله نتكلم».

ثم أغلقت الجهاز وعدتُ إلى سريرى مرة أخرى.

****

لم تكن ليلتى هذه ليلة عادية، فلم أنعم بالنوم لساعات، وأنّى لى أن أنام وفى الغد اللقاء، قضيت تلك الساعات أفكر فى السيناريوهات المحتملة والردود المتوقعة، ماذا لو قابلتها بين أصدقائها؟ وماذا لو رآنى أصدقائى أقف معها أو أجالسها؟ أفكار كثيرة مرّت على ذهنى قبل أن أغفو للحظات لم يكتب لها أن تطول، فقد أيقظتنى من غفوتى صرخات متتالية لصوت أعرفه.

ليست هذه هى المرة الأولى التى أسمع فيها صوت جارتنا «السيدة هيام» تصرخ، فكثيرًا ما كانت تحدث خلافات بينها وبين زوجها فتطلق صرخاتها المزعجة لتوقظ سكان العمارة أجمعين، إلا أن هذه المرة لاحظت أن الصراخ يعلو وكأنه يقترب منى، إلى أن سمعت دوى طرقات على باب شقتى، سترك يا رب.

- الحقنا يا دكتور أيمن.

حسنًا يبدو أن هذه الليلة تأبى أن تمرّ بهدوء، فزعت من سريرى، تحسست مكتبى بحثا عن النظارة حتى وجدتها، وانطلقت إلى الباب حيث ضجيج الناس الذين لابد أنهم قد تجمعوا حول مصدر الصراخ

الذى انتقل سريعًا من الدور السابع إلى الدور الثانى حيث شقتى، حين وصلت إلى الباب كان بانتظارى تجمع بشرى أشبه بالمظاهرة، تتوسطه تلك المرأة البدينة ذات الوجه المستدير «مدام هيام» التى تقبع فى العقد الرابع من عمرها، سألتها فى قلق:

-خير يا ست هيام؟

- أبو محمود وقع على الأرض فجأة ومش بيتحرك.

- ياساتر يا رب.. جايلكوا حالًا.

جعلت أجمع أدواتى وأدسها فى شنطتى، وأسرعت خلف السيدة هيام إلى الدور السابع، حين وصلنا كان الوفد المرافق لنا قد تضاعف تقريبًا، عند باب الغرفة نصحت الجميع بالإبتعاد قدر الإمكان عن موضع الرجل السبعينى المستلقى على أرضية الغرفة الخالية من الفرش، لإفساح الطريق لأكسجين الهواء ليصل إلى الرجل.

بدى جليا أن شجاراً ما نشب بين السيدة هيام وزوجها "أبو محمود" الذى برغم كبر سنه إلا أن ملامحه لا تشى أبداً بعمره الحقيقى، فشعره الأسود بمفعول الصبغات وذقنه المنمقة فى إتقان وهيئته التى يجيد الحفاظ عليها يمنحونه شبابا مضى عليه عقود. كان الحاج جاد أو أبو محمود كما إعتاد أن يناديه أهل الشارع رجل مزواج فالسيدة هيام هى زوجته الثالثة ومع ذلك فهى الأقدم فى سجل المقيدين على ذمته اليوم. فقد توفيت زوجته الأولى "أم محمود" منذ عشرين عاماً تزوج بعدها من راقصة كان يواعدها قبل وفاة زوجته، ثم لم يدم زواجهما طويلاً ويبدو

أن الحـــلال لم يروق لهما، ومن بعدها تزوج الســـيدة هيام، وهى لم تكن تخطت عامها العشرون. عاشا بضعة سنوات هادئة قبل أن يتزوج للمرة الرابعة من سيدة اعمال عرفها فى أحد سهراته ومن وقتها والخلافات بينه وبين الســـيدة هيام لا تتوقف حتى لاتفه الأسباب. منذ فترة علمت أن أبو محمود قد تزوج مجدداً حين قصدنى فى بعض الأدوية التى قد تعيد له "شقاوة الشباب" على حد تعبيره، وبرر ذلك بأن الزوجة الجديدة صغيرة فى السن.

يبدو أن الخبر لم يدم طويلًا فى طى الكتمان، وأن واشيًا قد أبلغ السيدة هيـــام بما أقدم عليه أبو محمود فوقع بينهما هذا الخلاف، جلســـت قرابة الرجل أتحسس نبضه وأنا أســـتمع منها ما حدث، لقد صدَق حدسى بالفعل فقد أبلغها أحد صبيان أبو محمـــود الذى يعمل فى تجارته بخبر زواجه الجديد مقابل خمسين جنيهًا منحته إياها وهى تتوعد «أبو محمود»، وحين أقبل الرجل فى هذا الوقت المتأخر كان فى انتظاره شـــجار انتهى بسقوطه مغشيًا عليه.

– طمنى يا دكتور.. قول إنه هيبقى كويس.

– متقلقيش.. إن شاء الله هيبقى كويس.

حاولت أكثر من مرة إفاقة الرجل، إلى أن بدأ يفتح عينيه ثم ساعدنى أحـــد الحاضرين فى حمله إلى سريره، وتطوع آخر بالنزول لشراء الأدوية التى كتبتها له، شرحت للســـيدة هيام أهمية أن يتجنبوا الحديث الليلة، وكذلك طريقة تناول العلاج، ثم استأذنتها وانصرفت، وفى الخلفية أذان

الفجر يتردد من المساجد المجاورة، ذهبت إلى المسجد الذى يجاورنا، أديت الفريضة ثم عدت إلى البيت، استلقيت على سريرى ولم أشعر بنفسى إلا بعد التاسعة صباحًا، فزعت وأنا أنظر إلى الساعة فى هاتفى.

هرعت إلى الحمام فى عجل، غسلت وجهى وتوضأت، صليت ركعتى الضحى، ثم ركعتين بنية الاستخارة، قبل أن أجمع حاجياتى وأتوجه إلى الكلية، حين وصلت كانت الساعة قاربت من العاشرة، يا إلهى، لم أتعود التأخر عن موعد السكشن بل على العكس كنت دائما ما أحضر قبل موعد السكشن بوقت ليس بالقليل، أتابع توافد الطلاب إلى القاعة حتى ألمحها، فيخفق قلبى، أراقبها، ألحظ المرح والسعادة اللذين تنثرهما بالمكان، تخيل شخص لا يكتفى بأن يكون مرحًا، بل ينشر المرح ويعدى من حوله بالسعادة.

اليوم وقد أتيت متأخرًا لا أعلم لما تبدو قاعة «سكشن 3» الذى أتولى تدريسه كئيبة، هل لأنى لم ألمح ابتسامتها فى الصباح، أو لربما أن إسلام زميلى هو الذى دخل السكشن بدلا منى، كثيرًا ما اشتكى الطلاب من معاملته لهم وازدرائه إياهم، يقولون أنه مغرور لكونه كان أول دفعته، ومع ذلك فهو غير قادر على توصيل المعلومة، سيئ هذا النظام الذى يربط اشتغالك بالتدريس بتقديراتك خلال فترة الكلية، مرت دقائق قبل أن أكتشف أن السبب فى هذا التغيير الذى ألمحه يرجع إلى نسيانى نظاراتى، حقًا تبدو الدنيا مختلفة دون نظارة، اليوم أشعر بالغبطة من هؤلاء الذين يرون الدنيا بألوانها ورونقها دونما حاجز زجاجى.

مررت على الدكتور عادل -رئيس القسم- الذى عاتبنى بلطف، ذلك الأب الذى كثيرًا ما وقف بجوارى وساندنى منذ وطأت قسم الأدوية بالكلية، كنت مترددًا كثيرًا أن أستقر فى أحد الأقسام الأكاديمية بالكلية فقد كنت أهوى الممارسة الإكلينيكية وحين اخترت قسم الأدوية، الذى أحسست أنه أقرب الأقسام الأكاديمية لفهمى للعلاج، جلست مع الدكتور عادل، الذى أولانى رعاية خاصة كأحد الشباب القليلين الذين وطأوا القسم بعد سنوات امتلأ خلالها القسم بالإناث، يتخللهم فقط إسلام الذى كان غير محبوب فى القسم لكثرة مشاكله وشكاوى الطلاب المتكررة منه، جلس معى يشرح لى كيف يمكننى أن أحافظ على مهاراتى الإكلينيكية، بل وأثقلها بدراستى للزمالات الأجنبية، وعملى بها جنبًا إلى جنب بجوار العمل بالكلية، وكيف يمكننى كذلك أن أنتج جيلًا محبًا لعمله ومهنته، فاهمًا كيف يعالج مريضه ويصف الأدوية المناسبة له، عندما بدأت عملى استمتعت كثيرًا بالعمل فى التدريس، لا أبالغ حين أقول أننى الأن أشعر بذاتى أكثر عندما أكون وسط الطلاب، أبتهج لدعوة أحدهم لى حين يفهم معلومة استصعبت عليه، أشعر بالأمل حين يقول آخر إن أصعب مواد السنوات الأكاديميه صار سهلًا بشرحى، وأنه تعلم كثيرًا منى كإنسان قبل أن يتعلم منى كطبيب.

شرحت للدكتور عادل الظروف التى حدثت يوم أمس، ووعدته بأن أحاول عدم التأخر مرة أخرى، تفهم الأمر وطلب منى أن أجتهد فى

إنجاز مشروع الرسالة فهو متحمس جدًا لإستكمال النتائج ونشرها، أطلعته على الجديد فى النتائج، ووعدته أن أبذل أقصى جهد لتخرج النتائج فى أحسن صورة وفى أقرب وقت.

دكتور عادل من الشخصيات التى تجد طريقاً إلى قلبك من أول لقاء فبشاشة وجهه وطيب لسانه يزيدان تلك الهيئة المتسامحة طيبة إكتساء شعره أو ما تبقى من شعره باللون الأبيض ما هم إلا إمتداداً لبياض يكمن فى داخله حتى تلك الندبه التى تعلو وجنته اليسرى والتى توحى بفرط نشاطه فى شبابه إلا أنها تزين وجهه المبتسم دائماً.

عندما حظيت بإشراف الدكتور عادل على الرسالة كان الكل يغبطنى فهو من أكثر الأساتذه تعاونًا مع المعيدين، دائمًا ما كان يحثنى على الاجتهاد وتحرى الدقه فى كل التفاصيل فمنذ بدأت أبحث عن موضوعات للرسالة أعرضها عليه فيطلب منى أن أجتهد فى أن أحظى بموضوع أقوى، إلى أن اخترت هذا الموضوع، الذى أدرس فيه تأثير عقار جديد مستخلص من عوامل النمو الموجودة فى الصفائح الدموية على الجروح صعبة الالتئام كالقدم السكرى، نالت الفكرة إعجاب الدكتور عادل جدًا، وشجعنى أن أخرج من هذه الفكرة ببحث مميز يمكننى نشره عالميًا.

عند خروجى سمعت صوت الدكتور مدحت -أحد أكبر الأساتذة فى القسم ومشرف المجموعة العملية التى أقوم بتدريسها «سكشن 3» ينهر عاملة فى نهاية الطرقة تأخرت عليه فى إحضار قهوته الصباحيه، كم

أكره معامله العمال كالعبيد، آثرت الابتعاد عنه فى هذا الوقت إلا إننى رأيته يقترب منى فى اتجاهه إلى مكتب رئيس القســم ثم نظر فى وجهى وأردف قائلا:

- إزيك يا أيمن.

- تــمام الحمد لله.

- مدخلتش السكشن ليه النهارده.. عديت على القاعة لقيت إسلام هو اللى بيشرح.

-والله يا دكتور حصل ظروف وجيت متأخر النهارده.

رد بشىء من التجهم وكثير من الحزم..

- ظروف.. كلنا عندنا ظــروف اللى عاوز يلتزم بيلتزم.. ثم أنا مش ناقص حد من الطلبة يجى يشتكى من إسلام.

- أنا أسف يا دكتور.. إن شاء الله مش هيتكرر الموضوع ده تانى..

- أتمنى.. لأنه لو اتكرر أنا مش هبقى مبسوط.

انصرفــت وأنا فى غاية الحرج، تمنيت لــو لم أقابل دكتور مدحت فى هذا الصباح، دكتور مدحت من الأساتذة الكبار فى القسم، ومعروف بغلظته، لا تســتطيع أن تجد فى وجهه تعبيرًا لما يــدور بداخله فوجهه المتجهم دائمًا تختفى بعض من ملامحه بين شاربه الغليظ ولحيته الخفيفة إلا أنهــا تظهر بوضوح فى خطوط جبهته وعقدة حاجبيه وبروز عينيه، عندما كنا طلابًا فى السنة الثالثه من الكليه كنا نهابه، ما أن يقع أحدنا معه

فى لجنه شفوى حتى يعلم تمام العلم أنه سيحظى بأدنى الدرجات وليت الأمر عند هذا الحد بل سيطاله أيضا من التوبيخ والتجهيل ما هو أقصى من بضع درجات ملكته الكليه إياها ليتحكم بها فى البشر.

عندما بدأت العمل فى القسم حذرنى الكثيرين منه، إلا أنه -ولسوء طالعى كان مشرف «سكشن 3» الذى أقوم بتدريسه، وعندما تحدثت مع دكتور عادل عن تخوفى بهذا الشـــأن، هوّن علىّ الأمر وطمأننى بأن الدكتور مدحت منذ خرج من عمليته الأخيره فى القلب وهو أهدأ مما كان، ذلـــك الأمر الذى لم ألحظه لاحقًا، مـــع ذلك فإننى أحمد الله أنه لم يصبح مشرفى فى رسالة الماجســـتير، أعرف زميلة لى فى القسم تكبرنى بثلاث سنوات وقع إشرافها عليه ولم تحظَ حتى الأن بإختيار موضوع الرسالة ثم هاهى قد أخذت أجازة مفتوحه بعد ضغط عصبى ونفسى مرت به خلال السنوات الماضية.

تذكرت فى تلك اللحظات أن الدرس العملى قد قارب على الانتهاء أو ربـــما يكون قد انتهـــى بالفعل، فتوجهت إلى حيـــث قاعة الدرس، لإجدها تخلو من الطلاب فيما عدا البعض الذين وقفوا يتبادلون بعض المعلومات، يا إلهى كيـــف إجدها إذن، وإذ بيد تربت على كتفى أدرت وجهى لإجد إسلام بقامته الطويلة، وجسده النحيل يواجهنى بابتسامة تبرز عظام وجهه البارزة أصلا، ثم أردف قائلا:

- أيه اللى جابك متأخر يا ميموووون.

يا لسخافة اسمى بهذا الدلع.. ثم تابع قائلا:

– ارتاح انت يا عم واحنا نشيل مكانك.

– ربنا يخليك لينا يا إســـلام.. قول لى بقى أيـــه الإنجاز ده.. لحقت تخلص السكشن .

– يا عم دى عيال بهايم لو قعـــدت معاهم للصبح مش هيفهموا.. يقوم قايل لهم محدش يســـأل أثناء الشرح.. اللى عاوز حاجة يسأل بعد السكشـــن .. وما بيصدقوا يخلصوا وكله بيخلع مفيش غير كام واحد كده من العيال الدحيحة اللى بيقعدوا يسألوا أسئله من اللى تعقد دى.. بتحجج بأى حاجة وأسيبهم وأخلع.

يا إلهـــى الدرس العملى الـــذى هو موضع للنقـــاش والتقارب من الطالب، وإجابة الاستفســـارات والتحليل يمنع فيه الأســـئلة، كيف لطالب لم يفهم جزءًا أن يســـتوعب ما بنى عليـــه من شرح، إذا كان لا يستطيع أن يسأل فيما لا يفهمه، اقترب مجموعة من الطلاب من موقعنا ثم قالوا لإسلام:

–دكتور بالنسبة للحاجات اللى كنا عاوزين نسألك عليها.

فرد إسلام:

–دكتور السكشـــن بتاعكوا جه أهو اسألوه زى مانتوا عاوزين.. أنا عندى مشوار ضرورى دلوقتى.

ثم انصرف وبقيت قرابة النصف ساعة أجيب عن أسئله واستفسارات الطلاب حتى انتهوا، وبعد أن هموا بالانصراف استوقفت أحدهم.

– دينا..

– أيوه يا دكتور.

– فيه حاجة تانية مش فهماها؟

– لا أبدًا يا دكتور.. تمام.

– طيب كان فيه دينا زميلتكوا اللى كانت بتسأل كل سكشن هى مشت ولا إيه؟

– دينا مين فيهم؟

– البنت الشاطرة اللى بتسأل علطول دى.

– دينا ثابت.

– أيوه هى تقريبا دينا ثابت.

ابتسمت البنت ابتسامة خبيثة ثم قالت:

– لا مجاتش النهاردة يا دكتور.

– مجتش؟ خير فيه حاجة ولا إيه؟

– معرفش والله.. لسه هنكلمها نطمن عليها.

– تمام.. لو فيه حاجة مش فهماها ابقى اسألينى على طول.

– طبعًا يا دكتور..

ثم انصرفت لتلقى صديقاتها فيتندرن ببعض الكلمات، ثم تعلو ضحكاتهن، أتساءل هل كنت مفضوحًا فى سؤالى عنها؟ ثم أنشغل فيما

هو أهم؛ لماذا لم تأت اليوم؟ لقد أرسلت لها بالأمس أنى سأتحدث إليها بعد السكشن ، هل كان لذلك دور فى غيابها؟ بقيت فى حيرة لدقائق ثم انصرفت.

****

فى طريقى إلى كافتيريا الكلية لأتناول مشروب يساعدنى على استكمال يومى الطويل، كانت الكلية المكتظة بالطلبة تئن من غياب زهرتها، ظل ذهنى مشغولًا وعقلى غائبًا عن زحام المكان، إلى أن وصلت الكافيتريا، وما أن جلست وحيدًا على إحدى الطاولات حتى حاصرنى اثنان من أصدقائى القدامى؛ أصدقاء الدراسة والأنشطة الطلابية؛ أحمد ونادر.

أحمد كان أمينًا للجنة الرياضية بالسنة الأخيرة لم يكن متميزًا إطلاقًا فى الدراسة، على العكس تمامًا فقد كان رياضيًا متميزًا كان يمارس كرة القدم، ولولا الكلية لأكمل فى هذا المجال، كان كذلك يحصد ميداليات ألعاب القوى على مستوى الجامعة، عندما تولى قيادة اللجنة الرياضية باتحاد الطلاب أبدى تميزًا إدرايًا أيضًا، هو الأن يتدرب بقسم جراحة العظام بالكلية.

أما نادر فكان شخصيه اجتماعيه مرحه خفيفه الظل، أسس إحدى الأسر بالكلية فى السنه الرابعة من سنوات الدراسه، وحازت على أفضل أسرة فى هذا العام، ثم كان أمينًا مساعدًا للجنه الأسر باتحاد الطلاب فى السنة التالية، وفى السنه الأخيرة من الدراسه كان أمينًا

للجنة الأسر وهو الآن يعمل بقسم الأمراض العصبية.

برغم أن التخصص قد فرق سبلنا، إلا أنه ما زالت تجمعنا ذكريات من العمل وكذلك من المرح نتندر بها فى لقاءاتنا، ثم هانحن نجتمع من حـــين إلى آخر يحكى كل منا عن متاعب عمله وأهوال تخصصه، يرانى كلاهما وغيرهما من زملاءئنا مرفهًا كأحد المعيدين بالأقسام الأكاديمية، لا يعلمون أننى ما إن أنتهى من اليوم الدراســـى الشـــاق حتى أذهب لأتابع بحثى ثم أذهب إلى عيادة أحد أســـاتذة الصدرية بالكلية أعمل معه مساعدًا وأنهل من بحور علمه، وحين أعود إلى بيتى أتفرغ لمذاكرة المادة العلمية التى أشرحها وكذلك أذاكر اســـتعدادا لامتحان الزمالة الذى أنا الأن على أعتاب الجزء الثانى منه.

جلســـنا قرابة الســـاعة يحكى كل منا نوادره ومغامراته مع المرضى، يُخرج ما فى صدره من معاناه إلى أن قال أحمد:

– مش ناويين تتهبلوا زيى وتتجوزوا.

فرد نادر:

– ياخى اتنيل إنت عاوزنا نخيب خيبتك، مفيش أحســـن من إنك تعيش حر كده.. بلا وجع دماغ.

بادرنى أحمد بالقول:

– طب وانت يا أيمن أيه رأيك فى الموضوع ده؟

– أيه.. هه.. ممم.. مش عارف والله.. بصوا بقى أنا هحكيلكوا على

حاجة.. بصراحة كده أنا معجب بواحده وبفكر أتقدملها.

فرد نادر:

– متقولش.. أكيد سـلمى اللى كانت معانـا فى الاتحاد.. البنت دى معجبة بيك من زمان.. شكل السنارة غمزت يا معلم.

فقال أحمد مستنكرًا:

– سـلمى مين يا عم.. دى اختفت من بعد مـا اتخرجنا ومش بعيد تكون اتجوزت وخلفت كمان.. تلاقى أكيد قصده على أيتن.. اللى معاه فى القسم.. بس دى بنت ناس أوى يعنى.

قاطعتهم مستنكرا:

– أيه اللى بتقولوه ده يا جدعان.. متسمعوا وانتوا ساكتين.. الموضوع باختصار إن فى طالبة فى «سكشن 3» عندى.

رد الاثنان فى آن واحدٍ:

– إيه؟!

فتابعت قائلًا:

– من أوّل السـنة لما شـفتها وأنا معجب بيها.. وحاسس إن جات الفرصة علشان أفاتحها فى الموضوع.

فرد نادر بجدية:

– أيه يابنى اللى إنت بتقوله ده.. طالبة فى تالتة لسـه! صغيرة أوى..

هتستناها أد أيه دى.. ده انت هتخلل جنبها.

فأردفت قائلًا:

– تصدقوا أنا غلطـــان إنى قلتلكوا.. مفيش دَفعـــة أمل كده.. زقة تفاؤل.. أيه الإحباط ده ع الصبح.

حاول أحمد أن يهون الأمر بعض الشىء.. فقال:

– يا سيدى المهم تفرحنا.

لا أعرف لما شعرت بالندم لمصارحتى لهم بذلك الأمر وتلك هى المرة الأولى التى أجهر فيها بمشاعرى تجاه دينا لأحد، ربما بغيت أن إخرج ما فى قلبى لأرتاح كعادتى مع أصدقائى ولكن لا أعرف لما شعرت بثقل فى صدرى عندما تحدثت إليه فى هذا الموضوع.

أنهيت حديثى معهم بعدها بسرعـــة، وتوجهت إلى المعمل، تابعت تجاربى وسجلت بعض الملاحظات ثم انصرفت إلى العيادة التى حان موعدها، كم تمنيت لو أن هاتفى يمكنه الدخول إلى عالم الإنترنت لأتابع حالتها على «الفيس بوك» بعد غيابها اليوم من الكلية، ولكنى تعودت أن أستخدم كل أداة فى غرضها فقط، فالهاتف المحمول للاتصال فقط، ذلك المعتقد الذى علىّ أن أتخلى عنه قريبًا.

عدت إلى شقتى فى هذا اليوم متأخرًا، لقد كانت العيادة مرهقة جدًا اليوم، عادة ما تكون كذلك يوم الســـبت مع بداية الأســـبوع، كذلك الشقة تبدو كئيبة، كم أشـــتاق إلى حضن الأسرة، شىء لا يشعر به إلا

فاقده، منذ دخولى الكلية انتقلت للعيش فى المدينة الجامعية حيث الحياة الشـــبابية المبهجة والملهية، كنت أتحمل معاناه المدينـــة وفقر خدماتها لصحبه الرفاق، فى الســـنة الرابعة من الدراســـة كانـــت المدينة مرتعًا للخلافات السياسية والنقاشات الحادة التى تصل أحيانا إلى الشجار، إلى جانب تردى مســـتوى الخدمات الضعيفة أساسًا، كل ذلك دفعنى لترك المدينة الجامعية واستئجار شقة.

طوال سنوات الدراسة الست وحتى بعدها فى سنة الامتياز ومن ثم تعينى بالقســـم وأنا أقيم بعيدًا عن أهـــلى، كنت أعود فقط فى نهاية كل أسبوعين أقضى يومى الخميس والجمعة مع أبى «الحاج مرزوق» الذى قضى حياته فى إحدى شركات القطاع العـــام إلى أن تقاعد قبل أن يتم الســـتين بعامين وأختى الصغيرة «إسراء» صاحبة الســـبعة عشر عامًا والتى أصبحت وبعد وفاة أمى تحمل أعباء البيت إلى جانب دراســـتها الثانوية، حتى إن خبر وفاه أمى وصلنـــى وأنا فى المدينة الجامعية أثناء امتحانات الســـنة السادســـة من الكلية، كانوا قد أخفوا عنى ظروف مرضها حتى لا أتأثر فى الامتحانـــات، وجاء خبر الوفاة قبل امتحانى الأخير فكان كالصاعقة، تركت امتحاناتى، وعدت أودع أمى، وقلبى منفطر على فقد القلب الذى لم ينشغل يومًا عن الدعاء لى والحنو علىّ.

(2)

تلك العيون الساهرة لم يثقلها سهدٌ قدر ما أثقلها طول بكاء، فقد قضت دينا ليلتها تبكى أمام غرفة العناية المركزة بمستشفى القوات المسلحة؛ الواقعة مباشرة على شاطئ الكورنيش بمنطقة سيدى جابر، لم تكن هذه هى المرة الأولى التى تزورهذا المكان، فقد كان يحمل أسوء ذكريات حياتها.

لم تكترث دينا بالاتصالات المتتالية التى لم تتوقف، فلم ترد على أحد من زميلاتها الذين حاولوا مرارًا الوصول إليها، ليطمئنوا على سبب غيابها عن الكلية، حتى الأرقام الغريبة التى زارت هاتفها لم تكن سوى أشباح تضىء الهاتف الصامت، ثم ما تلبث أن تنطفئ، كل ما كان يشغلها حاله أمها الصحية، تترد بين الحين والآخر على غرفة الأطباء لتطمئن على أمها، طلبت الإذن أكثر من مرة للدخول لرؤيتها، إلا أن طلبها قوبل بالرفض، والدها لم يكن أحسن حالًا منها، إلا أنه كان أكثر تماسكًا، كذلك تعلم فى دراسته العسكرية أن يكون أكثر صلابة فى مواجهة الأزمات، حتى يكون قادراً على إدارة الأمور.

حين بلغه فى الصباح تأزم حالة زوجته، اتصل فورًا بالمستشفى وطلب منهم توفير سيارة إسعاف لنقلها، وكذلك تجهيز مكان فى الرعاية المركزة، ثم ترك وحدة التدريب، وتوجه إلى المستشفى حيث

قابـــل القائد المنوب الذى وعده بإنجاز الرعايـــة اللازمة، ظل العميد محمد ثابت إلى جوار زوجته فى المستشفى؛ يحاول أن يبعث الطمأنينة فى ابنته دينا التى أعياها الحزن ترتمى من وقت إلى آخر فى حضنه وتشرع فى البكاء، فيطمأنها أن أمها ستكون بخير بإذن الله.

بدت البُشرى فى صباح اليوم التالى، عندما أخبرهما الطبيب أن أمها أفاقت من الغيبوبة، وفتحت عينيها، وبدأت تتحرك، ويمكن لأحدهما أن يتحدث إليها، أصرت دينا أن تدخل هى، وطلب منها الطبيب ألا تتأخر بالداخل، ما إن دخلت حتى جعلت تقبّل يد أمها، وتقول:

– متقلقيش يا ماما هتبقى كويسة إن شاء الله.. ربنا عمره ما هيفرقنا علشان عمره ما خذلنى، وأنا قلتله يا رب.. يا رب ما تفرقنى عن أمى أبدًا.. إنتى عارفة يا ماما لو جرالك حاجة أنا مش هقدر أعيش.. إنتى بالنسبة لى الحياة.. علشان كده أنا واثقه إنك هتبقى كويسه إن شاء الله..

ثم انفجرت باكية حتى علا نحيبهـــا، فتدخل التمريض، وطالبوها بمغادرة حجره العنايه المركزه لأنها بذلك تتســـبب فى إزعاج المرضى الآخرين، وكذلك تؤثر على نفسية أمها بالسلب.

خرجت دينا رغما عنها وارتمـــت فى حضن أبيها وجعلت تبكى، مما أقلق أبيها وسأل عن سبب بكائها، خرجت الكلمات متلعثمة من بين زفراتها أن أمها تحسنت بعض الشـــىء، ولكنها لا تحتمل رؤيتها بهذه الحالة، حمد الله، وجعل يطمئن ابنته أن كل شـــىء سيكون على ما يرام، وأن هذا ابتلاء من الله ليختبر مدى صبرهم، وقوة إيمانهم.

وقفت فى نهاية الطرقة المقابلة للعنايه تنظر من النافذة المواجهة للبحر، تتذكر تلك الأيام الصعبة التى قضتها مع أمها منذ شهور فى ذات المكان، أصبـــح الأمر مقلقًا بعدما تكرر للمرة الثانية، فى عصر ذات اليوم كانت الأخبار تأتى من داخل الرعايه المركزه بتحسن الحالة الصحية للمريضة رويدًا رويدًا، وبشر الطبيب بأنها اليوم ستوضع تحت الملاحظة حتى إذا لاحظوا استقرار حالتها سيقررون خروجها من الرعايه المركزه إلى العنبر، لعل هذا ما طمأن دينا، وجعلها تتنبه إلى غيابها لليوم الثانى عن الدراسة.

أخرجت دينا هاتفها لتتفقد ما وردها من اتصالات، وتتصل بإحدى زميلاتها فى الكلية لتتابع ما تم فى اليوم الدراسى، لكنها فوجئت أن هاتفها قد نفدت بطاريته، سألت إحدى الممرضات إن كان معها وصلة لشحن الهاتف، بادرت الممرضة بتناول الهاتف وأودعته بجوارها فى الشـــاحن، ودار بينهما حوار جانبى لم يدُم طويلا، فقد انصرفت الممرضة لاستكمال مهامها، ووعدتها بأنها ستعود بعد قليل لتناولها الهاتف.

بعد دقائق وجدت أبيها يشـــير إليها فى نهاية الطرقة، فذهبت مسرعة فأخبرها أن أمها تريد رؤيتها، وأنـــه أخذ لها الإذن من الطبيب المعالج، وطلب منها أن تكون أكثر تماسكًا، وعدته بذلك ثم أسرعت إلى داخل غرفة الرعاية، وجدت أمها تبتســـم، فاقتربت منها وقبلتها فبادرتها أمها قائلة:

– دينا.. حبيبتى إنتى عارفه إنك أقرب حد لى فى الدنيا دى.. وأديكى شايفه أخوكى بعد ما سافر مش بيســـأل غير كل فين وفين.. أنا عازراه،

ويشـــهد ربنا إنى راضيه عنه.. إنتى عارفه.. أنا لما كنت بقوله أنا غضبانه عليـــك، أو أنا زعلانه منك لما أتجوز مـــن ورانا.. أنا كنت بقولها من ورا قلبـــى.. بس هو أكيد مشـــغول، والغربه صعبه. ربنـــا يقويه، ويرجعه بالسلامة.

كادت الدموع تنسحب من عينى دينا رغمًا عنها، ولكنها حبستها تحاول قدر الإمكان أن تفى بما وعدت به أباها، وألا تؤثر على نفسية أمها.. قالت وهى تتصنع إنها تقول الحقيقة:

– أنس بيتصل بى كل يوم.. وقال لى إنه بيحاول ياخد إجازة علشـــان ينزل يطمن عليكى.

ابتَسمَت أمها ابتسامة من يدرك أن من أمامه يكذب، كيف يمكن لدينا أن تكذب على من يدرك من عينيها ما تبغى قوله؟! لم تجادل معها فى أمر أنس وإنما أكملت حديثها قائلة:

– أنا عاوزة أشـــوفك قوية يا دينـــا.. متخليش حاجة تكسرك.. كمان اوعى تتخلى عن أخوكى مهما هو بعد خليكى إنتى قريبه منه دايمًا.. وخلى بالك من باباكى.

ثم شعرت بالإجهاد فصمتت قليلًا وعيناها معلقة بعينى ابنتها التى بدأت تلمع بعبرات حبستها طويلًا، قالت بقلق:

– إنتى ليه بتقولى كده يا ماما.. الدكتور طمنا وإن شـــاء الله هتخرجى ونروح سوا.

فى ذلك التوقيت حضر الطبيب المعالج بابتسامة متفائلة وقال:

– أيه الأخبار دلوقتى يا ست الكل.

فردت بإعياء ظاهر:

– الحمد لله على كل حال.

فاقترب منها الطبيب وهو يتابع قراءات أجهزة المتابعة ثم قال:

– نستأذن دكتورتنا الصغيرة تنتظر فى الاستراحة.. علشان هنسحب عينة تحاليل لماما وعلشان التمريض ينفذ العلاج.

انسحبت دينا بهدوء وقلبها ينفطر قلقًا من كلام أمها الذى بدى وكأنها تعطيها وصايا قبل الرحيل، ثم انهمرت عبراتها، رغم أن أمها قد تحسنت نسبيًا، فإنها ما زالت تعانى، كلماتها المتلعثمة وشهقاتها المتقطعة لم تزل تزلزل قلب دينا الثمل، سمعت صوت الطبيب فى الخلفية ينبه على التمريض أن يوقفوا الزيارة ساعتين لحين إتمام العلاج.

خرجت دينا من حجرة الرعاية المركزة، وعيناها لم تتوقف عن البكاء، لم يكن أبوها فى انتظارها هذه المرة، ربما انشغل بالرد على إحدى المكالمات التى لم تتوقف من الأقارب الذين يتابعون من حين إلى آخر تطور حالتها الصحية.

انطلقت دينا لا تدرى وجهتها، ساقتها قدماها إلى خارج المستشفى ثم اتجهت ناحية الكورنيش، لم تشغل نفسها بالبحث عن نفق المشاة وإنما تخطت طريق الكورنيش مباشرة، لم تكترث بآلات التنبيه التى

حاصرتها من السيارات المارة بالطريق جعلت تخطو خطوات ثابتة حتى وصلت إلى الجهة الأخرى، فاجأها أحد المارة قائلًا:

– حرام عليكى يا بنتى.. إنتـــى كنتى بتنتحرى.. حد يعدى الطريق كده؟

لم ترد دينا وإنما أكملت ســيرها حتى وصلت إلى الصخور المواجهة للبحر، جلســت منفردة أمام البحر الهادئ نسبيًا، وجعلت الأحداث تمر برأسها، لم يتبقَ لها من طفولتها سوى ذكريات قليلة للطفلة البريئة، ثم البنت المشاكســة، ثم التلميذة النجيبة، ثم بعد ذلك مرحلة المراهقة بتقلباتها، ثم التزامها مع بداية المرحلة الجامعية، كل تلك الذكريات أمها جزء لا يتجزء منها.

لا تدرى دينا كم لبثت من وقت بهذا المكان، فلم يكن بيدها ســاعة وكذلك هاتفها المحمول لم يصاحبهــا فى رحلة الذكريات هذه، لكن الشــمس قد بدأت فى المغيــب، وعليها أن تعود لتطمــأن على أمها، وكذلك لتتناول هاتفها الذى تركته للمرضة.

(3)

لليوم الثانى على التوالى أعود إلى شقتى الواقعة بمنطقة كامب شيزار والقريبة نسبيًا من الكلية، ذهنى شارد، وقلبى معلق بمكان لا أعلمه، ذهبت اليوم إلى الكلية جعلــت أتابع وجوه الناس أبحث عن وجهها الغائــب، يا إلهى كيف أتحمل غيابها دون أن أعلم ســببا لذلك، حتى هاتفها أصبح مغلقًا، بعد محاولات للوصول إليها دونما رد.

كان أول ما فعلت أن فتحت حاســوبى، لأتابع غيابها عن صفحتها على «الفيسبوك».

«الفيســبوك» جزءٌ من حياتها اليومية، لا يغيب عنها عادة إلا وقت النوم، تجده يجالســها فى المنزل، على الحاســوب الخــاص، يصاحبها فى الهاتف أينما كانت، كنت أحســده أنها لاتغيب عنــه، إلا أنها اليوم قد غابت عنه أيضًا، قمت من مكانى جهزت وجبة سريعة للعشــاء، أنا أجيد الطبخ بالمناســبة، كذلك علمتنى الغربة عن أهلى، لكن ذلك لا يكــون إلا فى أوقات الفراغ، أما وقد أصبح يومى مشــغولًا ما بين علم وعمل، فقد بِتُّ أقتات على الوجبات السريعة التى أشــتريها أثناء عودتى، أنهيت عشائى سريعا، وكيف لك أن تأكل وبالك مشغول؟! قمت مرة أخرى لأتابع الحاسوب فتحت «الفيسبوك» لأجدها تطل من جديد، لم تفتح رسالتى غيرت حالتها فحسب، وكتبت:

«ربى أجرنى بقوتك وارحم ضعفى ولا ترينى مكروهًا فيمن أُحب»، ثم غابت من جديد، خفق قلبى فجأة، بدأت الأمور تتضح أكثر، لا بد أن أمهـــا قد تعبت، ولكن لما لم تتصل بى كعادتهـــا، هنا تذكرت أنها لم تحصل منى على الرقم الجديد، كنت قد غيرت رقم الهاتف منذ شهور، يا إلهى كيف أتصرف الآن، فتحت هاتفى وحاولت الاتصال بها، مرة بعد أخرى أنتظر لحظات مرهقة دونما رد.

تابعت الردود أحاول أن أفهم من خلالها إن كان أحد يعلم عن الأمر شيئًا.

– خير يا دينا طمنينا فيه إيه؟

– يا رب يا حبيبتى

– ألف سلامة على مامتك.. ربنا يطمنكوا عليها وتخرج قريب

التعليق الأخير كتبته صديقتها المقربة إسراء، لا بد أنها تعلم تفاصيل أكثر، أرسلت إليها على الفور.

– السلام عليكم.. إزيك يا إسراء.

مرت دقائق قليلة قبل أن أتلقى ردها:

– الحمد لله يا دكتور تمام والله.

– تعرفى مامة «دينا»محجوزة فين؟

– هى كلمتنى من شوية.. وقالتلى إنها فى العناية المركزة فى مستشفى القوات المسلحة.

- تمام شكرًا يا إسراء.

على وجه السرعة غيرت ملابسى مرة أخرى، وجهزت حقيبتى، قبل أن أغادر هممت بإغلاق الحاسوب، لأصعق وأنا ألمح التعليق الأخير، وكان من أحد أقاربها: «البقاء لله يا دينا.. شدى حيلك.»

****

الفصل الثانى

البحث

إذا كانت الآلام تحاصرك فعليك أن تندمج فى عمل يشغلك عنها لتخرج من الألم بأمل

(4)

مر شهر على الأحداث السابقة، شهر من المعاناة أعلم أنها تعانى أكثر من أى شـــخص آخر، ولكن قلبى أيضًا كان يئن دون أن أســـتطيع أن أُخرج ما فيه من أوجاع، ربما لم أتعامل مع أم دينا كثيرًا إلا أنه فى لقائى معها أثناء مرضها السابق أحسست كم هى طيبة وحنونة، لم أجد ذلك فى أبيها الذى كان يتسم بالحزم مع شىء من الغلظة.

لم تغب دينـــا طويلا عن الكلية، مر يومان فقط بعد وفاة أمها قبل أن ألمحهـــا للمرة الأولى، بالطبع لم تكن بذات المرح الذى كنت أجده فيها دائما، فروحها المكسورة لفقد أمها كانت قد تغلبت على بهجتها، وعيناها السقيمة من كثرة البكاء كانت قد وارت ابتسامتها، لمحت مقدار الألم داخلها وأنا أعزيها فترد بفتور:

– ربنا يكرمك يا دكتور.. شكرًا لاهتمامك.

ما كان لى وعلى مدار شـــهر كامل أن أفاتحها فى شىء، وكيف أحدثها عما بداخـــلى وجراحها لم تندمل بعد، كذلك فهى لم تعد كعادتها، فمنذ وفاة والدتها؛ أغلقت حسابها على «الفيس بوك»، لم تكن تجلس طويلا مع صديقاتهـــا فى الكلية، فتذهب إلى البيت مبـــاشرة فور انتهاء اليوم الدراسى، ابتسامتها المعتادة لم تكن تظهر إلا نادرًا، كنوع من المجاملة، كل ذلك كان له عظيـــم الأثر علىّ، فلم تحِنْ الفرصـــة أمامى لمتابعتها

كســـابق عهدى، أراها تبتعد ولا أستطيع أن أقترب منها، قلبى المعلق بها لا يزل ينزف.

فكـــرت كثيرًا كيف يمكن أن أُخرجها من حالة الفتور التى أصابتها بعد فقدها لإمها، كذلك فإن الامتحانات تقترب، ولو لم أجد ما يقربها منى فســـيطول البعاد، وسيســـتمر الوضع القائم كثيرًا، إلى أن هدانى تفكيرى إلى حيلة، من عادتى أنى لا أقف أمام قراراتى كثيرًا لأراجعها، وأتبين ما إذا كانت صائبة أم خاطئة كذلك تعلمت من تجاربى السابقة.

فى ذلك اليوم وبعد انتهاء السكشن ، وقفت بين من يسألوننى لم تكن تســـأل ولكن ربما كانت تحاول الاستفادة من أسئلة غيرها، حتى أننى ظننت أنها تنتظر منى شيئًا ما، إلى أن فرغ الجميع رأيتها تنصرف بينهم، كأنما خاب أملها فيما كانت تنتظـــر، راقبتها تتحرك بين الخارجين، ثم أخذت نفسًا عميقًا قبل أن أنادى عليها:

- دينا..

اســـتدارت هى وإحدى زميلاتها يبدو أنها تشاركها ذات الاسم إلا أننى نظرت إليها قائلًا:

- عاوزك ثوانى..

غـــادرت زميلتها القاعة، ووقفت هى تحتضـــن كتابها، اقتربت منها ببطء، وأنا أعدل من وضع نظارتى على أنفى بارتباك واضح، أتساءل ترانى تسرعت؟ هل كان على أن أفكر فى الأمر، وأحسب له جيدًا؟ إلا

أننى بادرتها قائلًا:

- أخبار المذاكرة إيه؟

- تمام الحمد لله.

- لو فيه حاجة محتاجاها مترددیش إنك تسألينى.

- طبعًا يا دكتور.. حضرتك زى أخويا الكبير.

شـــعرت بغصة فى حلقى، لكن لا بأس كل العلاقات تبدأ بالإخوة، تابعت:

- بـــصى.. فيه موضوع كده كنت عـــاوز أقولك عليه، وكنت متردد علشـــان معطلكيش وفى نفس الوقت الظروف الـــلى إنتى مريتى بيها منعتنى إنى أقولك.

- خير يا دكتور..

- هما فى الدراســـات العليا طالبين منى فى موضوع البحث الخاص برسالة الماجستير باحث مشارك من أحد الطلاب المتميزين بالكلية.. أنا شايف إنك أنسب حد للمكان ده.. لو خايفه إن الموضوع ده يعطلك، ده ممكن يكون مجرد اسم بيتحط فى الرسالة.. لكن لو حابة تشاركى فى الأعمال البحثية بيكون لى الشرف طبعًا، وطبعًا ليكى حق إنك ترفضى.

- مفيش مشـــكلة طبعًا يا دكتور.. بس لو ممكن أعرف البحث عن أيه؟

- أفهم من كده إنك بتفكرى تشاركى فى الأعمال البحثية؟

ابتسمت ابتسامة واثقة، ثم أجابت بهدوء:

-محتاجة أفكر فى الموضـــوع.. أنا عجبتنى الفكرة، إنى أشـــارك فى بحـــث علمى وكده.. بس مش عارفة ده ممكن يأثر على دراســـتى ولا لأ.. حضرتك عارف إن السنة قربت تنتهى، والامتحانات مش باقى عليها كثير..

- وقت ما تحبى توقفى شـــغل فى البحث قوليـــلى.. الموضوع مش إجبارى خالص.. ومفيهوش أى قيود.

- خلاص تمام يا دكتور

- وأنـــا النهاردة هبعتلك «البروتوكول»بتاع البحث تقريه، والوقت الفاضى عندك ممكن نقعد نناقش النقط اللى مش فهماها ونشوف أيه اللى ممكن تساعدى بيه.

- إن شاء الله..

- طب بما إن «الفيس بوك» مقفول اليومين دول، ممكن الإيميل اللى هبعتلك عليه؟

أخرجت ورقة من حقيبة يدها، وكتبت بها عنوان بريدها الإلكترونى، أعطتنى إياها، ثم انصرفت.

(5)

لم تكن هذه هى المـــرة الأولى التى أعود فيها من العيادة ليلًا مترجلًا على الأقدام، لم تكن المســـافة بين العيادة والشـــقة التى أسكنها بعيدة، ولكن إجهادى فى الأيام التى أعود فيها متأخرًا من العمل هو ما جعلنى أتوقف عن هذا النشـــاط الليلى منذ فترة، إلا أنه رغم التعب الذى حل بىَّ اليوم فإن سعادتى، وربما تفكيرى المطرد هو ما ساقنى لأعود فى هذه الليلة سيرًا على الأقدام.

أثناء ســـيرى فى هذا الشارع الطويل الذى يربط شارع أبو قير بطريق الكورنيش خلف كلية الهندســـه، ذلك الشـــارع الذى عادة ما يكون هادئًا فى مثل هذا التوقيت إلا أنه وفى أثناء سيرى على الرصيف، مرت بجوارى ســـيدة طاعنة فى السن تتأبط ذراع رجل كهل، وقد بدا عليهما جور السنين.

لم أتحقـــق فيهـــما فقد كان فكرى مشـــغولًا، كما هو الحـــال فى الأيام الأخيرة، إلا أنه وعلى بعد خطوات منى، بدأت الســـيدة تتشنج، ثم ما لبثت أن سقطت على الأرض مغشيًا عليها، والرجل بجوارها يحاول أن يساعدها، أو يفيقها، على الفور أسرعت إليهما أتحسس نبضها، واطمئن إلى حالة التنفس عندها وأتابع حركتها، بدأ الناس فى التجمع والشارع الذى كان خاويًا منذ ثـــوانٍ أصبح يئن من ضجيج البشر، غريب هذا

الشعب الذى دائما ما يتجمع حول كل صرخة، لا أعرف إن كان شيئًا من الخير الباقــى فى هذا الوطن، أن يهب الناس لنجده المحتاج؟ أم أنه فضول لأن يعرفوا مصدر الصياح وسببه؟ مع القليل من الإسعافات البسيطة بدأت السيدة تستفيق ويبدو أنها حالة عارضة، ساهمت إحدى الســيارات المارة بالطريق فى المســاعدة لنقل الســيدة إلى المستشفى، وانطلقت أنا إلى حيث ساقتنى قدماى، إلى شقتى.

هممت لإخــراج هاتفى لأطمئن على أبى، كما هــى عادتى كل ليلة إلا أننــى لم أجده بجيبى، بحثت فى حقيبتــى، عادة لا أضع الهاتف فى الحقيبة إلا وقت الدروس العملية إلا أننى لم أجده أيضًا، أثناء بحثى نما إلى ذهنى أن حافظة نقودى وأوراقى أيضًا ليست بجيبى، يا إلهى، ربما أكون قد نسيتهم بالعيادة، ولكننى متأكد أنهم كانوا برفقتى وأنا أغادر العيادة، مرت دقائق من عدم الاستيعاب، إلى أن تفطنت إلى حقيقة أن هاتفــى وحافظة نقودى قد سرقتا، ويبدو أن هناك ســببًا ثالثًا لتجمع الناس حول صوت الصراخ.

تصارعت الأفــكار فى ذهنى، ماذا على أن أفعل الآن، كل أشــيائى المهمه ضاعت مع المحفظه إلا النقود، عجيب الأمر أننى عادة لا أضع نقــودى فى الحافظة وإنما أضعها بالحقيبه أو منفــرده بجيبى، لقد أخذ السارق أشــياءً لا تهمه فى شىء، بطاقتى الشــخصية، كارنيه النقابه، كارنيــه الكلية، وأوراق أخرى مهمة ســتتطلب منى كثيرًا من الوقت والعنــاء لتجديدها، إلا أن الحافظة كانت تحوى شــيئًا آخر مهمًا، لقد

كان بهـــا الورقة التى أعطتنى إياها دينا اليوم، ليته أخذ نقودى وترك لى حاجياتى.

لقد أصبح الأمر فـــوق المحتمل، هذه هى المرة الثانية فى الشـــهور الأخيرة التى أتعرض فيها للسرقه، لقد سرق هاتفى منذ فترة ليســـت بالبعيـــدة، جهارًا نهارًا، أثناء ســـيرى على طريق البحـــر حيث انتزعه أحدهـــم من يدى، وأنا أتحدث به، ليســـتقر على ظهـــر دراجة بخارية انطلقت به، وســـط تجاهل المارة، حتى الشرطى الذى دون لى المحضر لم يقل سوى «استعوض ربنا»، لذا على ألا أُتعب نفسى هذه المره بعمل محضر وأن أستعوض الله.

خرجت أبحث عن أحد أكشـــاك المحمول لأُهاتف والدى، الذى ســـيكون قلقًا عـــلىّ حين يحادثنـــى، والهاتف مغلـــق، لا تتعجب من إستبساطى للأمور، فتكرار تلك الحوادث معى ومع من حولى، جعل هذا الأمر الشاذ مألوفًا وعلينا أن نتعايش معه.

عدت متعبا وقد أثقلتنى همومى، فأكثر ما يتعبنى هو الأمور الإدارية، والمرور على مكاتب الموظفين لتجديد تلك الأوراق، أسلمت نفسى إلى نعاسى حتى غفلت عيناى.

إستيقظت مبكرًا فجر اليوم التالى، أديت الفريضة فى المسجد المجاور، ثم عدت إلى شـــقتى، فتحت الحاسوب، وشرعت فى مراجعه الأرقام، والنتائج الأخيره فى البحث، نسخت الخطة البحثية للرسالة على قرص

مضغوط، وطبعت بعض الأوراق الخاصة بالنتائج، للذهاب بها إلى مكتب الإحصاء، جهزت حقيبتى، ثم انصرفت إلى الكلية، أعلم جيدا أن يوم الخميس يخلو من الدروس العملية، لذلك عادة ما أنشغل فيه فى إنجاز الأعمال البحثية،

عند مدخل العمارة التى أقطنها قابلت عم صبحى حارس العقار، ذلك الرجل البسيط، والذى يتمتع بقدر من الأمانة والصدق، من النادر أن تجدهم فى هذا الزمان، ابتسم لى ابتسامة ودودة وقال:

- لك عندى حاجة يا دكتور أيمن..

- خير إن شاء الله يا عم صبحى.

واختفى للحظات داخل غرفته المتواضعة، قبل أن يظهر بذات الابتسامة وبيده حافظتى، أعطانى إياها، وأخبرنى أن أحد الشباب سلمها له فى وقت متأخر من مساء الأمس، وأخبره أنه وجدها على أحد الأرصفة والأوراق متناثرة حولها، جمعها، وأستدل على العنوان من البطاقة وأحضرها إلى هنا.

أخذتها منه، وتفقدت ما بها من أوراق كانت كلها موجودة، لم يغب عن الحافظة سوى تلك الوريقة التى نسخت فيها دينا عنوان بريدها الإلكترونى، لا بأس، يكفى أن أراحنى الله من عناء استخراج مستندات جديدة، عرضت على عم صبحى مكافأة بسيطة، إلا أنه أبى ذلك، مبررًا أنه لم يفعل شيئا يستحق مكافأته، شكرته كثيرًا، وحمدت

الله على فضله، ومنته، لم أتساءل عن الهاتف، لم يكن أمره يهمنى كثيرًا، فقد كنت قد عقدت النية لشراء هاتف جديد، من الهواتف الذكية، فقد زادت حاجتى إليه فى الآونة الأخـيرة، انطلقت بأمل إلى الكلية، عند باب الكلية استوقفتنى لافتة كبيرة تحمل عنوان «قافلة الخير».

«تحت رعاية السيد الأسـتاذ الدكتور عميد الكلية، وبالاشتراك مع فريـق القادة الاجتماعيين بالجامعة، تُقيم الكليـة قافلة خيرية إلى دولة تشـاد، خلال إجازه نهاية العـام، لعلاج الحالات الإنسـانية، وعلى الراغبين فى التطوع من مختلف التخصصات التواصل مع شئون أعضاء هيئة التدريس، حتى يتسنى إتمام الإجراءات».

كم أعشـق العمل الخيرى، أجمل لحظات الحيـاة تلك التى تقضيها لرسـم البسـمة على وجه محتاج، أتذكر جيدًا أيام الأنشطة الطلابية، وكيف أن تعب المذاكرة، وعناءها قد يهون، وأنت تمنح الأمل لمريض، أو تلمح الابتسامة على وجه يتيم، منذ اندمجت فى الحياة العملية، تقلص الـدور الاجتماعى، والخيرى الذى أقوم به، فأيام الدراسـة كانت كل مسـئولياتى هى الدراسة، والمذاكرة فحسـب، أما الآن، فلم تتوقف الدراسة والمذاكرة بل، وزاد عليهم العمل، والبحث، ومهام التدريس.

أتمنى لو كان بإمكانى المشاركة فى تلك القافلة، لكنت أول المسجلين، ولكننى هذه الأيام منشـغل بأعمال البحث، التى قاربت على الانتهاء، كذلك امتحان الزمالة قد اقترب، وعلىّ أن أسـتعد له جيدًا، بالإضافة إلى المهمة الجديـدة، التى أوليها اهتمامًا خاصًـا، وهى «دينا»، التى لا

أدرى كيــف يمكننى التواصل معها الآن لقد ضــاع رقم هاتفها، مع هاتفى الذى سرق، وضاع عنوان بريدها الإلكترونى مع تناثر محتويات حافظتــى، علىّ أن أنتظر مجددًا قبــل أن يمكننى أن أقترب منها خطوة أخرى، كم أكره الانتظار، لكن علىّ ألا أجزع، فربما يكون خيرًا من الله، فى طريقى إلى القسم وأنا أستعد لركوب المصعد كان بانتظارى مفاجأة لم أكن أتوقعها، جعلتنى أتسمر مكانى للحظات.

وجدت دينا تتأبط زراع شــاب وســيم، تبدو عــلى ملامحه الهدوء والجدية ويتبادلان حديثا وديًا، بابتسامة غابت عنها منذ فترة، منذ وفاة أمها تحديدًا، بعد لحظات من عدم الاستيعاب أفقت على صوت عامل المصعد الذى يبدو أنــه خاطبنى أكثر من مرة قبل أن يرفع نبرة صوته، ليجعلنى أنتبه:

- طالع يا دكتور أيمن..

لم أجِبه فقط دخلت المصعد، وعيناى معلقة بدينا، ومن يرافقها إلى أن اختفيا خلف أبواب المصعد التى تغلق لتحجب عنى المشهد، الذى ظل عالقًا بذهنى إلى أن وصلت القسم، عادة أمر بمكتب رئيس القسم فى الصباح، لأُلقى عليه التحية، قبل أن أذهب إلى غرفة المعيدين إلا أننى عندما دخلت مكتبه كان فى انتظارى مفاجأة أخرى.

وجدت الدكتور مدحت يجلس على مكتب رئيس القسم ويواجهنى بابتســامة غير معهودة، ماذا يحدث، يبــدو لى وكأننى غبت كثيرًا عن الكليــة ليحدث كل هذا التغيير، أم أن هذا حلم، وســأقوم لتوى من

ثباتى لأتيقن أن هذا كله لم يحدث،

- صباح الخير يا أيمن.

- صباح النور يا دكتور.. أخبار حضرتك إيه؟

- بخير.. أخبار السكشن أيه؟ وعامل أيه فى الرسالة.

- تمام الحمد لله والله يا دكتور.. قربنا نخلص شغل الرسالة كمان،

- همتك بقى عاوزينك تترقى قريب.

- إن شاء الله يا دكتور.. بعد إذن حضرتك.

- اتفضل.

خرجت فى حالة من الذهول، وعدم الاستيعاب، ما الذى يجرى؟ وأين الدكتور عادل؟ ومنذ متى ودكتور مدحت يهتم بترقيتى؟ توجهت إلى غرفة المعيدين، التى كانت خاوية، جلست وحدى بضع دقائق قبل أن تدخل أيتن، ونهى -أصغر المعيدين- ألقتا التحية، ثم أردفت أيتن قائلة:

- دكتور أيمن.. كلمتك كتير امبارح.. مردتش علىّ، وبالليل كان الموبايل مقفول؟

تعجت من هذا الأمر، ما الذى يجعل أيتن تهاتفنى، وفى وقت متأخر، ولكن لا بأس، لا داعى للعجب، فاليوم كله ملىء بالمفاجآت، أجبتها فى انتظار مفاجأة جديدة:

- خير إن شاء الله..

– دكتور عادل امبارح جاتله أزمة قلبية، واتنقل للمستشفى، وكلنا كنا رايحين نزوره، وقالولى أبلغك.

– بجد.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. فى مستشفى أيه؟

– فى المستشفى التعليمى الجديد.

قمت من مكانى على عجل، سحبت حقيبتى، وتوجهت إلى المستشفى كى أطمئن عليه، عند مدخل المستشفى وجدت إسلام زميلى الذى بدا عليه التأثر، سألته على حالة دكتور عادل، فأخبرنى أن الحالة حرجة، وأن الزملاءء الذين يعملون بعناية القلب بالمستشفى أخبروه أنهم أعادوا الوظائف الحيوية للعمل بصعوبة بالغة، بعد لحظات من توقفها، وأنهم يجرون الآن بعض الفحوصات والتحاليل لمعرفة السبب.

ركبنا المصعد، وتوجهنا إلى حيث عناية القلب، التقينا بعض الزملاء، ووقفنا عند حالة دكتور عادل الصحية، الذى يبدو أنها لم تتحسن كثيرًا، فهو الآن على جهاز تنفس صناعى، لا يتحرك ولا يتحدث، استأذنت الزملاء، ودخلت العناية، جلست بجوار سريره قرابة الساعة، لا أتكلم فقط أتابع الأجهزة المعلقة بجسده، والوظائف الحيوية المدونة ساعة بساعة على دفتر الملاحظة بجواره، ثم جعلت أنظر لوجهه، أتذكر كلماته ونصائحه، أعرف جيدًا كم كان يحبنى، فقد كان لديه ولد وحيد فقده منذ سنوات فى حادث سيارة، وكان يخبرنى مرارا أنه يعتبرنى ولده، الذى لم ينجبه، قال لى ذات مرة:

«إنت عارف يا أيمن كل واحد مننا حواليه 3 دوايـر متوزع فيهم

معارفه وعلاقاته.. الدايرة الأولى هـــى الأقرب والأصغر، ودى فيها الأهل، والأصدقاء المقربين.. الدايرة التانية بتكون أبعد شويه، وكمان أوســـع، فيها معارفنا وأقاربنا البعاد شـــوية، وجيرانا، وزمايل الشغل والدراســـة وهكذا.. أما الدايرة التالتة ف دى الأوسع والأبعد، وفيها الناس اللى تعرفنا معرفة ســـطحية، أو متعرفناش حتى، بس بيشفونا وممكن الأيام تخليهم يتعاملوا معانا مرة أو أكثر.

الفكرة بقى إن فيه ناس لما تبصلهم من بعيد، وتكون عارفهم معرفة ســـطحية، يعنى إنت فى دايرتهم الخارجية.. بتكـــون مش حاببهم، لو اضطرتك الظروف إنك تقرب لهم أكثر، ممكن يؤكد الإحساس ده أو لأ، لكن لما تقرب أكثر وأكثر تكتشـــف حاجة تانية خالص.. تكتشف إنهم من جوه كويســـين جدًا وإنهم يبانوا كده بـــس من بره.. فيه ناس العكس، ممكن تبقى مبهور بيهم من بره لكن لما تدخل دايرتهم الأقرب، أو تقـــرب منهم أكثر هتتصدم، إنهم مش كده خالص.. علشـــان كده متحكمش على حد من بره، والانطباع الأول عمره ما بيدوم..

نادر جدًا لما تلاقى حـــد عنده النقاء اللى يخلى الـ3 دواير اللى حواليه بيحبوه.. إنت من الناس دى.. اللى صعب تلاقى حد يكرهها، علشان عندهم نقاء من جوه ومن بره.. اللى بيشوفك بيحبك، واللى بيقربلك بيحبك أكثر والقريبين منك بيعشقوك.. عارف ده مالوش غير تفسير واحد.. إن ربنا بيحبك علشان ربنا قال إن اللى بيحبه بينادى الملائكة إن الله أحب فلانًا فأحبوه ثم يوضع له القبول فى الأرض»

كان يخبرنى دائمًا، أنه سيكون لى شأن عظيم، بل ويقسم بذلك، وكأنه على يقين، يدفعنى دفعًا لأن أتقدم فى بحثى ودراستى، حين أخبرته عن رغبتى فى العمل الإكلينيكى، كان هو من بادر بالاتصال بالدكتور نادر -أستاذ الأمراض الصدرية - لأعمل معه فى العيادة، أشهد الله، أنه كان نعم الأب والمعلم، عسى الله أن يفك كربه، ويتم شفاؤه على خير.

بعيون تلمع بالعبرات، وقلب يئن من الحزن، خرجت من العناية، لم يكن أحد فى الانتظار غادرت المستشفى، وتوجهت إلى البنك قبل أن يغلق أبوابه، سحبت مبلغا من المال يغطى نفقاتى أسبوع آخر، ولكى أشترى هاتفًا جديدًا، ثم ذهبت إلى سوق الهواتف، اشتريت أحد الهواتف الذكية الأكثر عملية، والأقل سعرًا، واستعدت شريحة الهاتف بذات الرقم المفقود، من أحد المحال، وهاتفت والدى، طمأنته علىّ، وأخبرته أننى لن أعود إلى البلد فى نهاية هذا الأسبوع، لما حل بالدكتور عادل، تأثر أبى كثيرًا، فقد كان يعلم كم وقف بجوارى، وساندنى منذ التحاقى بالقسم، عرض علىّ أبى أن يأتى لزيارته ولكننى أخبرته أنه بالعناية، والزيارة موقوفة عنه الآن، دعا أبى له كثيرًا، وأوصانى به خيرًا.

عدت إلى المستشفى، قابلت زوجة الدكتور عادل عند باب العناية، يبدو عليها الإعياء والحزن، كنت قد قابلتها من قبل فى عدة مواقف، كانت تبدو صغيرة، مع أنها فى عمر الدكتور عادل تقريبًا، إلا أن المرح والابتسامة، كانتا لا تغيبان عنها، توارى علامات السن، وخطوط

الزمــن على وجهها، إلا أنــه اليوم، وقد غاب المــرح، وعبث الوجه، وذبلــت الملامح، فقد باتت ربما أكبر من ســنها الحقيقــى، حقًا تذبُل الورود فقط عندما يغيب من يسقيها، ألقت علىّ السلام، وطلبت منى أن أطمئنها على حالة الدكتور عادل.

(6)

فى ظهر يوم السبت وفى مشهد مهيب، خرجت من مبنى إدارة الكلية «القنصلية البريطانية سابقًا» جنازة الدكتور عادل فى مشهد اتشح بالسواد، أدينا صلاة الظهر ثم صلاة الجنازة فى «جامع إبراهيم» ثم توجهنا إلى المقابر حيث ودعت الكلية أحد أبنائها البررة وأساتذتها المخلصين، وسط دموع المقربين، وغير المقربين، فقد كان الدكتور عادل محبوبًا من الجميع يشهد الكل بخلقه وعلمه وإخلاصه، رحمه الله، وصبرنا على فراقه.

عدت إلى الشقة ليس لدى طاقة أو استعداد نفسى لعمل أى شىء، استلقيت على سريرى، وفى الخلفية صوت الشيخ مشارى العفاسى ينبعث من أحد المحال المجاورة التى تستعد للافتتاح، فيبعث الطمأنينة فى قلب أعيته الهموم، ثم ما يلبث الشيخ أن يتم القراءة، حتى تنطلق الموسيقى الصاخبة، لتؤذى القلوب والأسماع، لا أدرى ما حدث بعد ذلك فقد غصت فى نوم عميق، أفقت منه على صلاة الفجر أديت الفريضة، وعدت إلى المنزل، فتحت الحاسوب وغيرت حالتى على «الفيسبوك»وكتبت:

«يا من بيدك أمرى لا تكلنى لغيرك.. اللهم ارحم من كانوا لنا سندا..

ثم قمت من مكانى، جهزت شيئًا سريعا لآكله، وعدت إلى مقعدى

أمام الحاسب، لأجد بضعه تعليقات على حالتى، لم تسترعِ انتباهى، إلى أن استوقفنى التعليق الأخير:

«اللهم آمين يا دكتور... ربنا يرحم دكتور عادل ويجعل مثواه الجنة».

كانــت هى «دينا ثابت» صاحبة التعليق، لقــد عادت من جديد إلى عالمها الافتراضى، ارتجفت رغمًا عنى، ثم تذكرت آخر صورة عالقة لها فى ذهنى، وهى تتأبط ذراع ذلك الشاب، فتحت صفحتها لأجدها كما تركتها آخر مرة، فقط غيرت صورتها لتضع صورة طفلة صغيرة تبكى، لقد احترت لأمرها، هل أصدق تلك الطفلة الباكية، أم أنها ذاك الوجه المبتسم الذى قابلته فى الكلية آخر مرة؟ لم أرد على التعليقات، ثم ماذا؟ رسالة جديدة فى صندوق الوارد، فتحتها على الفور، لم تكن لـ «دينا»، كانت لإحدى الطالبات تدعى هدير، أتذكرها جيدًا فهى من المصريين القلائل الذين يدرسون بنظام التعليم الدولى.

– البقاء لله يا دكتور..أصلًا دكتور عادل كان من الدكاترة الرائعين.. ربنا يرحمه.

– ربنا يرحمه يا رب إن شاء الله.

– دكتور هو حضرتك سيبت السكشن بتاعنا ليه؟

– ده قرار من مجلس القسم الترم ده.. حاجة خارجه عن إرادتى.

كان مجلس القسم قد اتخذ قرارًا، لإسناد المجموعات العملية للتعليم الدولى إلى من هم مدرس مســاعد فما أكــبر، كنوع من الاهتمام لهؤلاء

الذين يدفعون مصر وفاتهم بالعملة الصعبة، فينعشون ميزانية الكلية.

– طب يا دكتـــور أنا مش بفهم كويس من الدكتـــورة اللى بتدخلنا أصلًا.. لو فى فرصة حضرتك تبقى تشرحلى.

– لـــو فيه حاجة مش فاهماهـــا تعالى لى القســـم فى أى وقت.. وأنا أشرحهالك.

– لأ يـــا دكتور أنا عاوزة حضرتك تشرحلى منهج الترم التانى كله.. علشان أنا مضيعة فيه ومش مذاكرة كويس، والامتحانات قربت واللى حضرتك عاوزه.

– مش فاهم معلش تقصدى أيه؟!

– قصدى حضرتـــك تديلى كورس برايفت فى الجـــزء ده...ومش هنختلف على الحساب.

سكت برهة ثم أرسلت إليها بلهجة جادة:

– أنا متأســـف والله... أنا مفيش عندى وقـــت فاضى، ومش بدى دروس لـــو محتاجة أى حاجة فى أى وقت ممكن تشرفينى فى القســـم.. وبدون أى مقابل..

لم أدع لها فرصة للرد، بل تابعت قائلًا:

– أنا هقفل دلوقتى علشان رايح الكلية.. بعد إذنك.

أغلقت الحاســـب وتوجهت إلى الكلية، حين وصلت القسم مررت على مكتب رئيس القسم كعادتى، مع علمى أنه ليس موجودًا، ولكن

هكذا جرت العادة، كان المكتب مغلقًا هذه المرة، ومعلق على بابه ورقة كتب عليها:

«على جميع السادة أعضاء هيئة التدريس، والهيئة المعاونة التواجد فى قاعة الاجتماعات فى تمام الساعة الثانية عشرة ظهرًا بعد انتهاء الدروس العملية».

اتجهت إلى قاعة «سكشـــن 3»، وقفت أرمق الطلاب، وهم يملئون القاعة، أدرت وجهى يمينًا ويســـارًا، لم تكن دينا قد حضرت، فى تمام التاسعة، دخلت السكشن ألقيت التحية على الطلاب، ثم قلت كلمتين فى رثاء أســـتاذى، ومعلمـــى الدكتور عادل، قبـــل أن أشرع فى شرح موضوع السكشن .

مرت عشر دقائق إضافية قبل أن ألمحها تدخل فى خجل، لتدس نفسها بين الحضور، صمَتُّ للحظات، قبل أن أنظر إليها، وآمرها بالوقوف، عاتبتها بشـــىء من الغلظة أمام الجميع، إلى أن لاحظت عينيها تلمعان بعبرات وشـــيكة النزول، لم أعتد فعل ذلك، ولا أدرى لما أقدمت على هذا الأمر، وهـــى المرة الأولى التى تأتى فيها متأخرة، أكملت موضوع الدرس على عجل، وما إن انتهيت حتى شرع الطلاب فى الانصراف، وهى تحاول أن تختبئ بينهم، إلا أننى ناديت عليها.

وقفت ثوانى قبل أن تســـتدير فى مواجهتـــى وعيناها إلى الأرض ثم قالت:

– خير يا دكتور.

– أنا بعتذرلك لو كنت شـــديد معاكى، أو أسلوبى كان مش حلو، بس اتعودت عليكى شاطرة وملتزمة، ودى أول مرة تتأخرى على ميعاد السكشن.

– متأسفة يا دكتور.. إن شاء الله هحاول متأخرش تانى.

– حصل خير.. عامة أنا كنت عاوز أديلك نسخة من البروتوكول.. أنا جيبتلك نسخة مطبوعة وشوية تفاصيل على أسطوانة.

قاطعتنى قائلة:

– دكتور هو أنا ممكن أعتذر عن الموضوع ده..

قطب وجهى فجأة، وسكتت للحظات، ثم أردفت قائلا:

– هو حقك طبعًا زى ما قلتلك قبل كده.. بس ممكن لو ما يضايقكيش أعرف السبب؟

– والله يا دكتور ظروف عندى فى البيت.. وحاســه إنه هيحط علىّ حمل، ومسئولية أنا مش أدها..

– عامة فى أى وقت تغيرى فيه رأيك هتروحى للســكرتيره هتلاقى عندها نســخة، البروتوكول والأســطوانة.. وربنا يوفقك ويهيئ لك الأمور.

لم أشأ أن أجادلها فى الأمر فهو شأنها، وليس من حقى أن أتدخل فيه، فقط تركت الأمر بيدها، شكرتها، واعتذرت لها مرة أخرى، ومضيت

فى شرود تام إلى حجرة المعيدين، لقد ازداد الأمر تعقيدًا، وازدتُ حيرة، فكلما اقتربت منها خطوة، ابتعدنا خطوات، وكأن القدر يأبى أن يطيل القرب، فأنعم بحلم ليس من حقى، لأفيق منه على واقع قد يكون أكثر ألما مما أقاسيه.

****

فى قاعة الاجتماعات وقف الدكتور إيهاب الباتع -أكبر الأساتذة سنًا، والأقدم فى القسم- ينعى الدكتور عادل، بمذيد من الأسى والتأثر، مما جعل بعض الحضور يشرعون فى البكاء، ثم أعلن أن الدكتور مدحت سيتولى قيادة القسم، كأكبر الأساتذة العاملين سنًا، لحين اختيار رئيس القسم الجديد، من خلال الترشيحات التى يقدمها مجلس القسم القادم حال انعقاده، ثم قام الدكتور مدحت فى ذات الوجه الخالى من التعبيرات، ليقول كلمة بسيطة، يؤكد فيها أنه سيسعى إلى استكمال خطة تطوير القسم التى بدأها الدكتور عادل، بكل جدية وحزم.

ساعة كاملة من النقاشات، تبين من خلالها أن الأيام القادمة ستكون أصعب، وأن تسلم الدكتور مدحت زمام الأمور فى القسم ليس وضعًا مؤقتًا، حديثه الواثق، والأفكار طويلة المدى التى تحدث عنها فى رؤيته للقسم، تؤكد أنه مستمر فى رئاسته، حسنًا علىّ أن أتقبل الوضع الجديد، وأستعد للتعامل معه.

(7)

مر ما يقرب من الأسبوع دون أن أتقدم خطوة فى موضوع الرسالة، ربما كانت الأحداث الأخيرة من وفاة الدكتور عادل، والمواقف المتتابعة التى حدثت مع دينا هى ما أخرنى فى إتمام أعمال البحث،

فى طرقة القسم الطويلة قابلتنى مدام فتحية السكرتيرة الخاصة بالقسم، ألقت علىّ التحية ثم أخبرتنى أن الدكتور مدحت يريد مقابلتى فى مكتبه بعد انتهاء الدرس العملى، وعندما هممت بالمغادرة، فاجئتنى قائلة:

– أه صحيح يا دكتور أيمن فيه طالبة عدت علىّ امبارح.. وطلبت منى السى دى والورق اللى إنت سيبتهولى.

مرت لحظات قبل أن أعى ما قالت، هى تخبرنى أن دينا عدلت عن قرارها السابق، وطلبت أوراق البحث، حاولت مواراة ملامح السعادة والبهجة التى ارتسمت على وجهى فجأة، وقلت مبديًا عدم اهتمام:

– تمام.. المهم دكتور مدحت مقالش عاوزنى فى إيه؟

– لأ مقالش.. إن شاء الله خير.

– يا رب.. شكرًا يا مدام فتحية.

انطلقت متهللًا، أسارع خطواتى إلى قاعة الدرس العملى، لم أمر على مكتب رئيس القسم كعادتى، هو يطلبنى بعد الدرس العملى، ولا

داعى لمقابلته مرتين فى اليوم، ثم ماذا؟ إنها فى الانتظار، سألقاها اليوم، وقد عدلت عن قرارها السابق، لا أدرى ما السبب إلا أنه يكفينى أنها وافقت على المشـــاركة فى أعمال البحث، هـــذا كفيل بأن يعطينى طاقة ايجابية، لاستكمال اليوم.

فى قاعة الدرس كانت تجلس فى المقدمة، لم تغير الأسود منذ وفاة أمها، إلا أن وجههـــا المشرق يضيء قاعة الدرس التى عادة ما تكون مظلمة، لتشـــغيل جهاز العرض، جعلت عيناي تتابعها مـــن آن إلى آخر، أثناء وقت السكشـــن ، فألمح عليها علامات الفهم، قبل أن أنتقل إلى النقطة التالية.

فى نهاية الدرس وقف الطلاب كعادتهم يســـألوننى على ما استعصى عليهم فهمه، وكانت هى بينهم، كانـــت دومًا هنا تزاحم الزملاء بعد السكشن ، وإن لم تسأل فهى تحاول الاستفادة من أسئلة الآخرين، عند الانتهاء انصرف الجميع وقبل أن تنصرف هى، بادرتها بالقول:

– دينا..أنا مبسوط إنك غيرتى رأيك على فكرة.

فردت بتلقائية:

– والله يا دكتور أنا عجبانى الفكرة من الأول.. بس أنا بمر بظروف صعبة اليومين دول.. وده اللى خلانى كنت رافضة فى الأول.

– طب وأيه اللى غير تفكيرك كده فجأة، وخلاكى تقررى تشاركى.

– الصراحة.. أخويا هو اللى نصحنى لما حكيتله، وقالى إن انشغالى فى

عمل زى البحث ده، هو اللى ممكن يخرجنى من الحالة النفسية اللى أنا فيها..

أخوهـا!! لم أكن أعلم أن لها أخًا، حتى أنه أيام المرض الأولى لأمها، عندما كنت أتابع حالتها، لم أقابل أخًا لها، وكنت أظنها وحيدة.

- أول مرة أعرف إن ليكى أخ..

- ما هو كان مسافر أيرلندا.. ولسه جاى من كام يوم..

تابعتُ بابتسامة تملأ وجهى:

- هو اللى أنا شفته معاكى هنا فى الكلية من كام يوم.. مش كده؟

- أها..كان لسه واصل إسكندرية، وعدى عليا..

لا أستطيع وصف سعادتى بما أخبرتنى به، كنت على يقين من ذلك، وقلبى يحدثنى أن دينا ليست بالفتاة التى يمكن أن تصاحب، أو يكون لها رفيق، أتابعها منذ فترة طويلة، ألاحظ الحدود التى تضعها فى معاملاتها مع الآخرين، تابعت قائلًا:

- قريتى حاجة فى البروتوكول ولا لسه؟

- قريته كله.

- بالسرعة دى؟ !! ممتاز.. وأيه رأيك؟

- هو فيه حاجات مفهمتهاش أوى.. بس حاسه إنه هيكون إنجاز رائع لو النتايج كانت إيجابية..

- إنتى هتخلصى محاضراتك الساعة كام؟

- عندى محاضرتين.. هخلص الساعة واحدة إن شاء الله.

-غالبًا هكون فى مكتبة الكلية.. لو حابة نتناقش شوية فى البحث أنا فاضى شوية..

- إن شاء الله.. بعد إذنك يا دكتور علشان ألحق المحاضرة..

- اتفضلى..

ثم انصرفت وتركتنى، على أمل بلقاء يجمعنا بعد ساعتين من الآن، مرت لحظات قبل أن أفيق على موعدى مع دكتور مدحت، توجهت إلى مكتب رئيس القسم، وجدته مشغولًا مع أحد ضيوفه، أمرنى بالانتظار فى الخارج، نصف ساعة كاملة فى انتظار خروج الضيف، لو عرفتنى جيدًا، لأدركت كم أكره الانتظار -قتل الوقت- هكذا هو وقت ضائع من حياتك فى اللا شىء، بعدما خرج الضيف، مرت عشر دقائق إضافية قبل أن يسمح لى بالدخول، جلست أمامه فى رهبه لم أشعر بها يومًا مع الدكتور عادل، لم ينظر إلىَّ، جعل يتابع جهاز الحاسب المواجه له، ثم ضغط زر الجرس، لتهبّ السكرتيرة فى ثوان لتقف أمامه، طلب منها أن تطبع له نسخة من مجموعة أوراق بيديه، حتى إذا انصرفت السكرتيره نظر إلىّ، ربما تنبه إلى وجودى للتو ثم قال:

- إزيك يا أيمن..

- الله يسلمك يا دكتور.

– أنا عارف إنك شخص مجتهد.. وسِمعنا كتير عن موضوع الرسالة بتاعتك.. وإنت عارف إن بعد ما الدكتور عادل اتوفى الإشراف هيتغير.

أومأت برأسى فى حين تابع قائلًا:

–.. أنـــا قريت البروتوكـــول بتاعك.. وقررت إنـــى أنا اللى هكون المشرف الرئيسى بتاعك جنب دكتور عبد المنعم لحد ما تكمل الرسالة وتناقش..

– اللى حضرتك تشوفه يا دكتور.

– عاوزك تجيبلى بقى نسخة من كل اللى إنت كتبته فى الرسالة.. المقدمة وأدوات البحث والنتايج.. كل اللى عملته محتاج أبص عليه.

– إن شاء الله.. فى أقرب وقت هتكون عند حضرتك..

لا أدرى إن كان من حق الدكتور مدحت أن يولى نفســـه مشرفًا على رســـالتى دون حتى العوده إلى مجلس القســـم أم لا؟ فقد كنت أتوقع أن ينتقل الإشراف تلقائيًا إلى المـــشرف الثانى – الدكتور عبد المنعم – أعلم أنه غير متابع لأعمال البحث ربـــما لا يعلم عنوانه أصلًا، كذلك فإن ظروفه الصحية تجعله بعيدًا عن القسم لفترات، لذا علىّ الانصياع لأوامر دكتور مدحت، وإلا ســـأقف عند هذه الخطوة كثيرًا. أتأمل إلى الفارق الشاسع فى المعاملة بينه وبين الدكتور عادل –رحمه الله– ولكن لا داعى لعقد المقارنات. لعله الخير من الله.

****

فى مكتبه الكلية، جلســت أســتطلع بعض الأبحاث التى تناولت مواضيع مقاربة لموضوع رســالتى أحاول أن أثرى من خلالها المناقشة داخــل الرســالة. لا أدرى كم مر من الوقت. عادة أفقد الإحســاس بالوقت عندما أندمج فى الاســتطلاع أو القــراءة. إلا أننى أفقت على صوت مألوف يستأذن بالجلوس:

– دكتور.. ممكن أقعد.

– هدير.. إتفضلى طبعًا.

عدلت من وضع نظارتى فى ارتباك. لم أكن أتوقع هذه المفاجأة وأنا فى انتظار دينا. ترى من أخبرها بوجودى فى المكتبه. تابعت قائلة:

كان فيه حاجات مش فاهماها أصلًا فى الشبتر ده.

ثم سلمتنى الكتاب وهى تشير إلى الأجزاء التى لم تفهمها.

– يعنى إنتى ذاكرتى.. والحاجات دى مش فهماها؟

– بصراحة يا دكتور أنا لســه مذاكرتش الجزء ده أصلًا.. مش بعرف أذاكر جزء إلا لما أكون فهماه كويس أصلًا..

– طيب أناعلشــان مســتعجل.. وعنــدى مشــوار ضرورى بعد شــوية. ممكن أديلك فكره عامة عن الموضوع، بحيث تقدرى تبدأى مذاكرة.. وجزء جزء تقوليلى اللى إنتى مش فهماه فيه، بعد كده علشان أشرحهولك..

– تمام يا دكتور.. أى حاجة والله هتنفع.. أنا أصلًا مش عارفة أبدأ فى

الفارما خالص.. بحسها صعبة كده، والصراحة هى مش بتتفهم أصلًا غير من حضرتك..

ابتسمت ردًا على هذه المجاملة، ثم شرعت فى شرح الفكرة العامة للموضوع وعيناي معلقة بباب المكتبه، تتابع الزوار الذين يتوافدون من آن لآخر. بعد دقائق لمحت إسلام يدخل المكتبه. لكنه ابتعد فى اتجاه الموظف، ثم تبعه الموظف إلى جهاز الحاسب. يبدو أنه يبحث له عن كتاب ما. اندمجت فى الشرح للحظات اختفى خلالها إسلام، ثم بعد دقائق لمحته تدخل. ارتبكت وتلعثمت كلماتى قليلًا. لكننى بثبات أكملت الشرح حتى وصلت إلى طاولتى. طلبت منها الجلوس، وأسهبت فى شرح سريع لإطار الموضوع، ثم توقفت، وقلت موجهًا حديثى لهدير:

– كفاية كده النهارده.. إبدأى مذاكرة فى الموضوع، ولو فى حاجه مش فهماها إبقى إسألينى.

شكرتنى كثيرًا واستأذنت، ثم انصرفت وبدأتُ أشرح لدينا موضوع البحث، وكيف يمكننا الوصول إلى نتائج من خلال تجربة العقار الجديد على حيوانات التجارب. كيف نختار الأرانب، ونعتنى بها، ثم نصيبها، ونتابع الإصابة إلى مرحلة معينة، ثم نقسمها لمجموعات؛ بعضها يأخذ العلاج التقليدى لهذه الحالة والبعض يحصل على الدواء الجديد، ثم نتابع تطور الإصابه، وفى نهايه التجربة نجرى بعض الفحوصات، والتحاليل الباثولوجيه التى تخبرنا ما وصلت إليه الحالة.

جعلت قرابه النصف ساعة أشرح وأحلل لها بعض النتائج التى توصلنا إليها، وكيف يمكن تأكيدها، ثم قلت:

– أتمنى إن الموضوع مايكونش ممل بالنسبة لك.. أو يكون فيه حاجه مش فهماها..

– بالعكس يا دكتور.. الموضوع مشوق جدًا بالنسبة لى.. حاسة إنه فعلًا هيكون إنجاز لما يخلص.. وهيخفف الألم عن ناس كتير.

– عامة أنا المفروض أعدى دلوقتى على المعمل بتاع حيوانات التجارب.. لو حابه تيجى معايا تتفرجى على الشغل بنفسك..

صمتت برهة، كأنما تفكر فى شىء ما، ثم قالت:

– طيب أنا ممكن بس هروح أشترى شوية حاجات، وممكن أعدى على حضرتك بعدها.

– تمام.. هو فى الدور الأرضى.. اسألى بس على عم رضا. كله عارفه هناك هيدلوكى على مكانه.

– أوك يا دكتور.. بعد إذن حضرتك.

انصرفت دينا وجعلت أجمع أوراقى، ثم تحركت بعدها بدقائق إلى حيث الدور الأرضى. هناك قابلت عم رضا، الذى استقبلنى بابتسامته المعتادة، التى لا تغادر فاه، وجعل يقول مداعبًا:

– مش هناكل أرانب قريب بقى يا دكتور أيمن؟

– هانت أهى يا عم رضا.. دعواتك.

– إنت عارف يا دكتور أيمن.. أنا بقالى شغال فى المكان ده 25 سنة. من أيام ما كان تحت الأرض فى مبنى التشريح القديم.. عمرى ما حسيت بغربة غير لما نقلونى أشتغل فى قسم التحاليل، وأتعامل مع البشر ساعتها عرفت أد أيه إن التعامل مع الحيوانات أهون بكثير.. مستحملتش إسبوعين، وطلبت أرجع تانى.

قال ذلك وهو يفتح الغرفة التى تحوى مجموعات عملى من حيوانات التجارب، ثم تابع قائلًا:

– تخيل يا دكتور أيمن.. فى المعمل كان فيه واحد من العمال متورط فى سرقة جهاز، كان جاى تبرع أصلا للمستشفى.. تخيل يسرق حاجه الناس متبرعين بيها لعمل الخير.. «الناس خلاص باعت ضمايرها. حسبى الله ونعم الوكيل» .

وظل يحكى لى تلك القصة التى أسمعنى إياها عشرات المرات، وأنا أتصنع الاندهاش وكأنى أسمعها للمرة الأولى، ثم بدأ فى تجهيز المجموعة الأولى من الأرانب، قبل أن يعرضها علىّ واحدة تلو الأخرى، واذ بصوت يستأذن للدخول فى هدوء، وأدب. إنشرحت أساريرى، وأنا ألمحها تدخل فى خجل. قمت من مكانى. لم أبالى بالأوراق التى تناثرت على أرض المعمل. لم تكن سعادتى فى هذه اللحظة توصف. عندما دعوتها لمتابعة حالة حيوانات التجارب، والاطلاع على التجربة عن قرب. لم أكن أنتظر موافقتها فقد كانت مجرد محاولة. شاء الله أن تكتمل بالقبول.

(8)

مضى أسبوع على تلك الأحداث. أكاد أجزم أنه من أسعد أيام حياتى وأروعها، وكيف لا يكون كذلك، وأنا ألتقيها نهاية كل يوم دراسى، بين شرح لما لم تفهمه فى الدراسة وبين متابعة للأعمال البحثية. أشعر وكأن بؤرة ضوء تضيء قلبى وتتسع. تعرفت فى خلال هذا الأسبوع على أخيها مهندس أنس. يعمل مشرفًا فنيًا فى إحدى الشركات الكبيرة فى مجال الهندسة النووية مقرها فى دبلن. لم نتحدث كثيرًا، كان لقاءً عابرًا اتضح خلاله أنه شخصية لطيفة جدًا، إلا أنه يعشق العمل، يضعه فى مقدمه أولوياته، مما يجعله جادًا معظم الوقت.

كان أيضًا مما أضفى على أسبوعى الهدوء، غياب دكتور مدحت عن القسم، لمشاركته فى أعمال مؤتمر سنوى يعقد فى هذه الفترة من كل عام خارج البلاد، ويشترك فيه رئيس القسم. كما انتقل الإشراف على مجموعتى العملية إلى الدكتور رأفت؛ أحد أساتذة القسم الذين لا يهتمون كثيرًا بشئون القسم، وتواجده فى الكلية محدود، إلا أنه غير مثير للمشاكل. كان ذلك بأمر دكتور مدحت قبل السفر، لانشغاله فى رئاسة القسم.

بالأمس التقيتها بمكتبة الكلية، وللمرة الثانية تأتى وأنا أجلس مع هدير، التى جعلت تتردد علىّ الفترة الأخيرة كثيرًا. هل حقًا هى تجد

صعوبة فى كل هذه الأجزاء من المنهج، أم أنها تعتبره درسًا خصوصيًا؟ لا أدرى هذه المرة عندما وصلت دينا لمَ امتقع وجه هدير، فى حين لم تبال دينا؟ واستأذنت فى المجىء فى وقت آخر، إلا أننى طلبت منها البقاء إلى نهاية الشرح، ثم جلست معها نتحدث بخصوص البحث. تطرقنا فى الحديث إلى تغيير الإشراف على الرسالة، وكيف أن الدكتور مدحت يفرض نفسه على البحث فى نهايته، ويصر على أن يكون مشرفًا رئيسيًا لى.

كانت دينا ترى أنه ليس من حقه أن يأخذ عمل غيره، وينسبه إليه إلا أننى أوضحت لها أننى لا أريد أن أدخل فى دائره مشاكل مع رئيس القسم قد تعطل من عملى أكثر من أى شىء، ولكنها طلبت منى أن أحتفظ بحقى فى أن أسأل وأتبين، ما إن كان من حقه ذلك أم لا.

اليوم وصلت الكلية مبكرًا. اتجهت مباشرة إلى مبنى الدراسات العليا التقيت أستاذ ياسر؛ الموظف المسئول عن التخصصات الأكاديمية. سألته عن قضية الإشراف، وأوضحت له أن البحث قارب على الانتهاء، والدكتور مدحت يصر على فرض نفسه على لجنة المشرفين. تفهم الأمر، وطلب منى أن أعود فى نهاية اليوم الدراسى، حتى يكون قد استفسر عن الأمر من الإداره القانونية للدراسات العليا، حتى يتسنى له إعطائى رأيًا مؤكدًا فيه.

****

فى طرقه القسم الطويلة، سمعت صراخ الدكتور مدحت. يبدو أنه فى حالة مزاجية سيئة اليوم، وعلىّ الابتعاد عنه، واريت نفسى فى حجره المعيدين وأخرجت كتاب الماده، أستعد للدرس العملى، من خلال قراءة سريعة للنقاط التى سأقوم بشرحها اليوم، ثم طلبت الحاسوب النقال الخاص بالقسم؛ حتى أنقل عليه العرض الخاص بدرس اليوم. فى هدوء غادرت حجرة المعيدين إلى قاعة الدرس.

قبل نهايه الشرح بدقائق، دخلت سكرتيره القسم، واقتربت من موضعى، ثم قالت بصوت متوتر:

- دكتور مدحت عاوزك حالًا.

- خير فيه حاجه ولا إيه؟؟

- مش عارفه والله بس هو شكله متنرفز جامد..

- ربنا يسترها.. هخلص السكشن وأعدى عليه.

- مش هينفع هو قالى يسيب اللى فى إيده، ويجيلى دلوقتى حالًا..

- خلاص دقايق وهكون عنده إن شاء الله.

جعلت أدعو فى سرى أن يسترها الله، واعتذرت للطلبة عن استكمال موضوع السكشن ، وعن إجابه استفساراتهم بعدها، وأسرعت الخطى إلى مكتب رئيس القسم، الذى يحتله حاليًا دكتور مدحت، وقفت فى الخارج فى حين أبلغته السكرتيرة بتواجدى فى انتظاره. سمح لى بالدخول ثم قلت:

– السلام عليكم.. دكتور مدحت قالولى إن حضرتك عاوزنى.

لم يرد، جعل ينفث دخان سيجارته، كأنما يفكر فيما يبدأنى بالقول، ويبدو أن الموضوع خطير. ذلك الذى جعله لم ينتظر حتى انتهاء الدرس العملى. بعد دقائق من الصمت، قال بصوت حاد:

– أيه رأيك يا أيمن فى موضوع الدروس الخصوصية؟

لم أستوعب السؤال، أو ربما الغرض من السؤال، الذى جعلنى أترك الدرس العملى لأجله. أجبت وعلامات التعجب تتطاير من رأسى.

– مش فاهم قصد حضرتك يا دكتور.

– يعنى فيه مشكله بتقابلنا هنا فى القسم، وهى إن فيه ناس بتدى دروس. إنت أيه رأيك فى الموضوع ده؟

– والله يا دكتور أنا شايف إن أفضل حل للموضوع ده إن القسم يغنى الطالب عن الدروس.. بأننا نوفر له اللى بيدور عليه بره.. بمعنى إننا نزود المراجعات فى القسم، ونعيد ترتيب المحاضرات بما يتناسب مع الطالب، ونخلى الدروس العملية أكثر تفاعلية.. الطالب لما يكون فاهم الدرس كويس من الكلية، مش هيضطر يدفع فلوس علشان يسمع نفس الكلام بره.

– عظيم.. طب وأيه رأيك فى اللى بيدو كورسات؟

– معرفهمش.. معظمهم أصلًا من خارج القسم.

– بص يا أيمن.. أنا فيه شكوى أدامى بتقول إنك بتدى كورسات..

وهنا فى الكلية، وفيه ناس قالت إنهم شـــافوك أكثر من مره بتســـتغل قاعات المكتبة فى شرح دروس خصوصية.

إحمر وجهـــى فجأة، وبدأ الدم يغلى فى عروقـــى. إنه اتهام مباشر لى. انفعلت، وقلت بصوت عالٍ نسبيًا:

– لا يـــا دكتور مدحـــت.. أنا عمرى ما عملت كـــده ولا هعمل.. ومسمحش لحد إنه يتهمنى الاتهام ده.

فجأة بدأ الدكتور مدحت يصرخ:

– إنت بتعلى صوتك قدامى.. الظاهر إنك نســـيت نفســـك.. إنت لسه فى بداية حياتك، وبتعمل كده.. أومال لما تبقى مدرس، ولا أستاذ مساعد هتعمل إيه؟

ثم تابع قائلًا:

– إسمع يا أيمن.. إنت إسمك لسه بالقلم الرصاص، وشكوى زى دى ممكن تأثر على مســـتقبلك.. وأنا علشـــان حرصى على مستقبلك، مرضيتش أرفعها للإدارة.. يبقى نسمع الكلام واللى يطلب مننا نعمله، ومنلفش وندور عـــلى المكاتب الإداريـــة فى كلام لا يودى ولا يجيب وحاجات ملناش أصلاً نســـأل عنها.. هنا إنـــت فى منظومة لازم فيها تســـمع للى أكبر منك، وتحترم رأيهم علشـــان هما أدرى بمصلحتك.. فاهم كلامى.

أصبت بذهول، ولم أســـتطع أن أحرك ســـاكنًا. لم أستوعب كل هذا

الكلام دفعة واحدة. فقط أومأت برأسى استسلامًا لأوامره، ثم قلت فى انكسار:

– متأســف يا دكتور.. بس والله ما حصل إنــى أديت دروس، ولا فكرت فى الموضوع أصلا.. ده كان بيبقى طلاب بيسألوا على حاجات، وأنا كنت بشرحها ليهم، وبدون مقابل.

– الموضوع انتهى يا أيمن.. وقلتلك الشــكوى فى درج مكتبى مش هتطلع إلا لو حصــل منك حاجه ضايقتنــى.. وأوراق البحث كلها تكون فى مكتبى بكره الصبح.. أنا عرفت إنك بتخلص خلاص الجزء العملى ومستنى أشوف اللى إنت كتبته.

– حاضر يا دكتور.. بعد إذن حضرتك.

هممت بالقيام وغادرت المكتب بكسرة لم أشــعر بها يومًا. فى الخارج كان لفيــف من الزملاء، والعاملين بالقســم قــد تجمعوا على صوت الدكتور مدحت، مما جعلنى أستشعر الحرج، وانصرف سريعًا.

قبل أن أغادر بوابة الكلية، اقتربت منى هدير، واعترضت طريقى ثم قالت بابتسامة:

– دكتور.. إزى حضرتك.

أجبت بلهجة جادة:

– الحمد لله.. خير.

– كنت عاوزة حضرتك تكمل لى الشرح بتاع إمبارح.

– أنا متأســف يا هدير مش هقدر أكمل لك شرح.. ممكن تستعينى بأى حد من الزملاء.. لكن أنا اليومين الجايين مشغول جدًا، ومعنديش وقت خالص..

قطب وجهها فجأة، وجعلت تنظر لى باستعطاف، ثم قالت:

– يعنى هتتخلى عنى!

– إيه؟!

الفصل الثالث

هكذا الحياة

الحياة ليست بالضرورة عادلة.. العدل موجود فقط فى مكان ما خارج هذا العالم

(9)

فى كافتيريا الكلية، كانت هدير تتوسط مجموعة من صديقاتها؛ بعضهن من ملتحقات التعليم الدولى، ورفيقتهـــن من التعليم المصرى. تفرق بينهم عادة فى المدرجات، أو المجموعـــات العملية؛ حيث الإزدحام، والتكدس فى النظـــام المصرى العادى، وعدم الإهتمام من أعضاء هيئة التدريـــس، فى حين الأهتمام البالغ بالطلاب حيـــث عدد قليل فى كل مجموعة يتوســـطهم عضو لهيئة التدريس، يهتم بتوصيل المعلومة لكل طالـــب فى النظام الدولى، ولكن لا داعى لعقد المقارنات فخارج نطاق الحياة الدراسية تجدهم يتجمعون فى مجموعات حسب اهتماماتهم، ولا تستطيع أن تفرق بينهم إلا بصعوبة.

كانت هدير، ورفيقاتها عـــادةً ما يلتقون عند ذات الطاولة. يحفظون موقعهـــم فى الكافيتريـــا. يملئون المكان صخبًـــا بضحكاتهن العالية، ونقاشاتهن المتأججة عن الموضة، أو عن بعض الأفلام أو المسلسلات الأجنبية، ونادرًا ما يتحدثون عن الدراسة. فهى فى مؤخرة اهتماماتهم. لا تتعجب الأمر فكونهم فى كلية الطب لا يجعلهم بالضرورة يفكرون طوال الوقت بالدراسة، والمذاكرة.

بين ضحكاتهن صاحت روناء موجهة حديثها إلى هدير:

- وأيه أخبار صاحبك بتاع الفارما؟

– بـــس متفكرنيش ده بنى آدم غريب أصـــلًا.. تخيلى قَلَب علىَّ قلبة سواد، وكل ده علشان بقوله هتتخلى عنى!

تدخلت ماريهان فى الحديث الذى يبدو أنه يثير فضولهن جميعًا، قائلة:

– قلت لك يا بنتى من الأول إنه مش سهل توقعيه.

فردت هدير مدافعة عن قدراتها التى تحاول ماريهان التقليل منها:

– على فكره هو أســـهل من كده بكتير. بس أصلًا يا بنتى فيه واحده شكلها كده بترسم عليه من فتره وشكله متعلق بيها.. شفتها معاه أكثر من مرة، ومش عارفه أيه اللى عاجبه فيها.. دى أصلًا حتى مش ستايل خالص..

ردت روناء:

– يا شيخة.. محسسانى إنه توم كروز، ما هو كمان نفس العينة «الطيور على أشكالها تقع».

ثم تابعت قائلة:

– بس خلاص كده يعنى هتفكسى للحوار ده؟ ولا ناويه تحاولى معاه تانى؟

ردت «هدير» بلهجة منهزمة:

– يا بنتى خلاص أصلًا.. الباشا سكته مقفولة. أنا بس اللى غايظنى، حرقه الدم اللى حرقها لى فى وســـط الكلية النهارده.. أنا يقولى «إلتزمى بحدودك معايا فى الكلام» .. هو فاكر نفسه أيه ده؟ أنا والله ممكن أقول

لبابى يظبطه عند رئيس القسم أصلًا.

فجأه صاحت «علا» منبهة صديقاتها:

– بس بس بقى.. مصطفى جاى علينا.

مصطفى هو الصديق المقرب للمجموعة وهو معهم بذات الدفعة فى التعليم الدولى. كان مصطفى منذ السنة الأولى معجبًا بهدير، ويحاول التقرب منها. تعرف فى البداية على ماريهان؛ التى كانت طريقه للانضمام إلى «الشلة» ، وحاول التقرب أكثر من مرة من هدير، إلا أنها كانت دائما ما تبتعد عنه. كانت تراه شخص سمج، وغير مسئول، فى حين باقى المجموعة يرون فيه فتى أحلامهم. مؤخرًا، ارتبط مصطفى بماريهان، فى مشهد مكرر من أفلام الخمسينات، لكى يثير غيرة هدير، التى لم تهتم، فقد كانت تنشغل بشخص آخر لم ينتبه لها يومًا. هكذا هو وهم السراب؛ يأخذنا ليبعدنا عمن يرغبنا، إلى من ليس لنا.

اقترب مصطفى من طاولتهم، وعيناه تسترقان النظر إلى هدير. فى حين استقر فى مجلسه بجوار ماريهان، بعد أن ألقى عليهن التحية، ثم شرع يحكى لهن عن إنجازاته فى المذاكرة، التى عادة ما يسمعن عنها فى حديثه،دون أن يكون لها مردود فى النتيجة، ثم قاطعته روناء قائلة:

– أومال يا بنى لما إنت دحيح كده وفتك، كل سنة جيد بالعافية ليه؟

– والله يا روناء أنا ببقى فاهم، وكل حاجة لكن الكلية دى عاوزة حد يدش وخلاص.. وأنا مشكلتى إنى بنسى بسرعة، وبعدين يا ستى

أدينا بنعمل اللى علينا.. مش أحسن ما نذاكرش.. ونجيب امتياز بقدرة قادر.. «أصلًا» .

إحمر وجه هدير التى استشاطت غضبًا، لما فى حديثه من إيحاء لكونها تحصل على الامتياز ســنويًا، بقليل من المجهود، وكثير من التوصيات وقالت غاضبة:

– تقصد أيه يا مصطفى.. والله مش شرط أصلًا يعنى إن اللى بيذاكر يمشى يقول للناس كلها إنه بيذاكر، زى ما سعادتك بتعمل.

ابتسم مصطفى ابتسامة خبيثة، قبل أن يرد:

– وهو حد وجهلك كلام.. ولا اللى على راسه بطحة.

استشــاطت هدير غضبًا وهبت قائمة ثــم انصرفت تاركة حالة من الجــدل فى المكان. بين عتاب لمصطفى عــلى إحراجه لهدير، وبين تنمر وشــماتة فى هدير التى يشــعرون بالغيرة منها؛ لأنها تتفوق عليهم فى الدراسة دائمًا بالإضافة إلى حسنها، الذى يجعلها محور اهتمام الكثير من الزملاء، ومن بينهــم مصطفى الذى يعلمون جيدًا، أنه ورغم ارتباطه بماريهان، إلا أنه ما زال يتعلق بهدير.

****

فى الخــارج كانــت هديــر تقف مع هــدى – إحــدى زميلاتها فى المجموعة– يتبادلان بعــض الأوراق الخاصة بمادة علم الأمراض. لم يتجاوز الحديث بضع دقائق حيــث قاطعه مصطفى حينما جاء يعتذر

لهدير عما بدر منه فى الكافتيريا. استأذنت هدى فور وصول مصطفى، الذى بدأ حديثه مداعبًا:

– تعرفى إن الجو كئيب كده.. والسما مغيمة علشان إنتى مكشره.. أقسم بالله.

لم ترد هدير، فقط أومأت بوجهها بعيداً عنه. إلا أنه استدار مواجهًا لها. وجعل ينظر فى عينيها لحظات، قبل أن يكمل حديثه:

– فكى يا هدير بقى أنا كنت بهذر معاكى الموضوع مش مستاهل يعنى.. وبعدين إحنا خارجين النهارده، والخروجة مش هيكون ليها طعم من غيرك.

ردت هدير بلهجة حادة:

– أنا مسمحلكش يا مصطفى تهذر معايا بالطريقة دى أصلًا.. لازم تلزم حدودك فى الكلام معايا.. فاهم.

لسخرية القدر، هى ترد على زميلها بذات الرد الذى أنكرت على أيمن مواجهتها به. عبث وجه مصطفى، وغابت ابتسامته التى عادة ما تملأ فاهه. لم يرد. أومأ برأسه فى استسلام، ثم انصرف مكسورًا بخاطره.

(10)

عـــادت دينا إلى المنزل بعد يوم طويل، حيث المراجعات النهائية التى تضيفها الكلية إلى جدول اليوم الدراســى. دخلت غرفتها وارتمت إلى سريرها تزاحمهـــا الأفكار، وتغالبها الهموم. إلى أن اعتدلت جالســة، ثم دفنت رأسها فى وســادتها. تحاول أن تهرب من عالمها الملىء بالعناء والحزن. تحاول أن تتوقف، ولو لحظات عن التفكير.

منذ وفاة أمها، وهى تفتقد السند. كانت أم دينا هى أقرب صديقاتها. عندما تثقلها الأحزان كان ترتمــى فى حضنها، تحكى لها كل أوجاعها وآلامها، فتجد المشــورة والرأى الذى يمكنها أن تعتمد عليه فى اتخاذ قراراتهـــا. تنتهى من الحديث معها، لتخرج بلا هموم أو آلآم. أما الأن، فقد باتــت تكتم آلامها وأوجاعهـــا بداخلها، حتــى تنفجر، فتبكى بالســـاعات وحيدة فى حجرتها، ثم تلهى نفسها فى المذاكرة أو القراءة. أبيها لم يكن مقربًا لها كأمها. كذلك هو يغيب عن المنزل بالأيام لطبيعة عمله وانشــغاله. أخوها أنس منذ عودته، وهو يحاول أن يخفف عنها، إلا أنه لن يشعر أبدًا بما بداخلها. أنس عملى جدًا، وتلك الشخصيات العملية لا يمكنها أن تثمن المشاعر.

جلســت دينا هكذا فوق الساعة، حتى سمعت باب الشقة يفتح. لم تتحرك من مكانها، أو تغير من وضعها. لابد أن أباها قد عاد بعد يومين

من الغياب، أو ربما يكون أنس، أنهى للتو أحد لقاءاته بأصدقائه، حيث يستغل أيام تواجده القليلة فى مصر لمقابلة أصحابه القدامى. بعد دقائق سمعت دينا أزيزا لهاتف. إنها نغمة تليفون أنس. إذًا هو أنس بالخارج. تحـــدث حديثًا قصيرًا باللغـــة الإنجليزية، بدا أنـــه حديث عمل. ربما يستعجلون عودته. إنه ســـيعود عاجلًا أو آجلًا وسيترك خلفه خواء. سحقًا، تأبى رأسها أن تتوقف عن التفكير، ثم هو يقترب من غرفتها، ويطرق الباب لترد دينا بثقل واضح:

- ادخل.

يفتح أنس الباب، ثم يدنو من أخته فترفع رأســـها. تبدو على وجهها علامات تركتها وسادتها، لتزاحم علامات الحزن، فيقَبِّل أنس جبينها، ثم يقول:

-دكتورتنا الجميلة.. عاملة إيه؟؟

فترد بإعياء:

-الحمد لله يا أنس.. إنت عامل إيه؟

-والله يا دينا ما ناقصنى غير ابتسامتك.. نورى الدنيا كده بابتسامتك يابنتى.

ثم هى تحاول أن تراضية بابتسامة تبدو مصطنعة.. فيتابع:

-فكرتى فى اللى قلتلك عليه؟

تغيب مجددًا الابتسامة عن وجهها، لتختفى غمازاتها، ثم تقول:

-أنا مش عارفة يا أنس والله مـــش قادرة آخد قرار زى ده.. أنا مش متخيلة أن بعد ما ماما بعدت عنى، إن كمان أنا أبعد عن بابا.. إحساس الغربة مش هيكون سهل علىَّ أبدًا.

- طب ما أنا هبقى جنبك يا حبيبتى.. وكمان «إيلى» مراتى لطيفة جدًا وهتحبك خالص..

جلس بجوارها، فاعتدلت فى مواجهته ثم تابع:

- كمان الحياة فى أيرلندا حاجه تانية خالص، غير هنا.. هناك هتقدرى تبعدى عن الجو النفسى الكئيب.. وأنا واثق إنك هتتعودى بسهولة على المعيشه هناك، وهتحسى مع الوقت أنك بتتقدمى فى وسط مجتمع بيقدر العلم، والتعليم من أهم أولوياته.. البلد هناك جميلة أوى.. الشـــوارع نظيفة، والنظـــام نظام.. جربـــى حتى فترة إجازة الصيف، وشـــوفى هتقدرى تكملى ولا لأ.

صمتت دينا برهة، ثم أجابت:

- وأنا اللى كنت متخيلة إنك ممكن ترجع علشان تبقى جمبى.. بعد ما ماما راحت..

- طب وشغلى، والنجاح اللى أنا محققه هناك، وأسرتى الصغيرة اللى منتظرانى.. أنا مش بتخلى عنك يا دينا بالعكس.. أنا عاوز أقف جنبك، وأوعدك إنى هعمل كده هناك.. هســـهلك الإجراءات كلها، علشان

متضيعش عليكى سنين الدراسة اللى تعبتى فيها..

– فيه حاجات ليا هنا يا أنس عمرك ما هتحس بيها.. هنا فيه ذكرياتى، فيه أصحاب الدراسة. فى المجتمع اللى أنا إتربيت فى وسطه، واتعودت عليـــه.. فى الناس الطيبة اللى بتراعى بعض.. حاجات مش هلاقيها فى أى مكان تانى.

عبث وجه أنس، ثم قال بجدية:

– حاولى تفكرى بعقلك شوية كل مكان فيه الحلو والوحش.. لكن هناك مســتقبلك هيكون أحسن، وعيشــتك هتكون أريح.. هناك لما تتعبــى هتلاقى مقابل، مش تتعبى وتعبك يروح لناس تانية.. أنا كنت بقول زيك كده، قبل ما أســافر.. لحد ما حسيت بالظلم وأنا من أوائل دفعتى، وبقدم أحســن مشروع تخرج بين زمايلى، ويدونى درجه قليلة علشان يرفعوا واحد تانى أبوه أستاذ فى الكلية، فياخد درجه أحسن من درجتى، ويتعين هو فى الجامعة، وأتحرم أنا من الوظيفة اللى طول عمرى بحلم بيها، وبجتهد علشان أوصل لها.. تسمى ده إيه؟

– طب وبابا يا أنس؟

– هو فين بابا.. إنتى شايفه أهو بيغيب باليومين والثلاثه. مش بيسأل فينا.. بابا يا دينا هو السبب فى اللى إحنا فيه!

ظهرت علامات الدهشــة على وجه دينا، التى يبدو أن هناك مالم ينمُ إلى علمها بعد.. ماذا يعنى أنس بأن أباها السبب. قالت فى تشتت:

– وأيه علاقة بابا باللى إحنا فيه؟

– معادش ينفع متبقيش عارفة.. بابا يا دينا متجوز من سنتين.. عمرى ما أنسى يوم ماما ما عرفت أنه متجوز، وإنهارت، وتعبت، ودخلت المستشفى.. أنا أه كنت مسافر، بس اتصدمت لما بلغونى.. بسهولة كده عشرة السنين هانت عليه.. إتفقوا إنهم يخبوا عليكى الكلام ده علشان دراستك، وعلشان عارفين إنتى ممكن تتأثرى إزاى لما تعرفى.. بابا هو السبب بطريقة أو بأخرى فى تعب ماما.. بابا دلوقتى له حياته اللى إحنا بقينا على هامشها.. لازم إحنا كمان نشوف حياتنا، وننتبه لمستقلنا..

لم تتحمل دينا ما سمعته لأول مرة، كانت تصدم مع كل كلمة تسمعها من أنس. كيف أخفوا عنها طوال هذا الوقت؟ وكيف لم تلاحظ الخلافات التى تحدث بين أبيها وأمها فى الفترة الأخيره والتى لم تكن تهدأ إلا بتدخلها؟ فيغادر أبوها المنزل فى هدوء، وتختلق أمها مبررات واهية لخلافات حادة، تتأجج يومًا بعد يوم. الآن هى تجد تفسيرًا لأشياء كثيره. لم يكن غياب أبيها لانشغاله بالعمل فحسب. عثراته المادية مؤخرًا لم تكن هى وأمها السبب الوحيد فيها.

ظلت دينا تبكى، وأنس يحاول أن يهون عليها بكلمات تزيدها حرقه بدلًا من أن تخفف عنها. لم يكن أنس يقصد أن يزيد معاناة أخته بالتأكيد، ولكن كان لابد أن تعرف. هى بصدد قرار مصيرى عليها أن تتخذه، وهى على دراية بكل التطورات حولها. كذلك هى لم تعد صغيرة، ولم يعد الكتمان هو الحل. لابد أن تقوى وتواجه. هكذا كان يرى أنس.

بعـــد دقائق دق جرس الباب. هو ليس أباهـــا بالطبع فلديه المفتاح. حسنًا لم يكن الوقت المناسب لعودة أبيها، ولكن من يا ترى؟ هَمَ أنس ليفتح الباب، وأوصى دينا بمحاولة التماسك، والهدوء ثم عاد إليها بعد دقائق، وأخبرها أن صديقة لها تنتظرها بالخارج. طلب منها أن تغسل وجهها، لتخرج لمقابلتها. لم تكن دينا تبغى مقابلة أحد، فقد أصابها من الهم والإعياء ما يصعب مداراة ملامحه.

انصاعت دينا لطلب أخيها، وغســـلت وجهها، وخرجت إلى غرفة الضيوف لتجد وفاء، رفيقتها فى دروس القرآن. ببشاشتها المعتادة ألقت عليها التحية، ثم جلست بجوارها بادرتها وفاء بالقول:

– أيه الحكاية يا بنتى بقالك أكتر من شهر مش بتيجى.

– والله أنا مفتقدة جدًا الدروس، ونفســـى أرجع. بس الامتحانات قربت وظروف وفاة ماما..

– الله يكـــون فى عونـــك.. ربنـــا يثبتك يا رب ويقويكـــى.. بس ده ميمنعش برضو إنك لازم ترجعى تحضرى، وتحفظى زى الأول.. إحنا قربنا نحصلك يا بنتى.

حاولت دينا أن تبتسم، ثم تابعت:

– هحاول والله بس ماوعدكيش أعرف أنتظم.

– ليه بس؟

– الموضوع مش بس دراسة، وامتحانات فيه حاجات كتير تعبانى،

ومخلية الواحد مش قادر يفكر فى حاجة..

– طب ما تحكيلى يا بنتى يمكن أقدر أساعدك فى حاجة أو حتى مجرد فضفضة.. لو حابه، وأوعدك مفيش حاجه تخرج من الكلام ده برانا.

استأذن أنس ودخل ليقدم لهما عصيرًا جهزه بنفسه، ثم أخبر دينا أنه سيذهب ليبتاع بعض متطلباته، ولن يتأخر. شرعت دينا تحكى لرفيقتها ما تقاسيه هذه الأيام. تخرج ما بجعبتها. لم تكن وفاء من الصديقات المقربات لدينا، إلا أنها فرصتها لترتاح من بعض أثقالها، بمشاركة شخص آخر لما بداخلها. حكت لها عن أبيها، وما عرفته مؤخرًا من أنس. حكت عن أمها، وما تقاسيه بعد فراقها. عن الدراسة، وفرصة السفر للخارج. كل شىء بداخلها حكته لوفاء إلا شىء واحد ظل فى طى الكتمان. شىء تخفيه حتى عن نفسها.

(11)

كانت الأيـــام الأخيرة صعبة، وكئيبة، خصوصـــا مع غياب مصدر البهجة لقلبى –دينا– عن الكلية دون سبب واضح. لم تكن حتى تفتح صفحتها، لترى رسالتى التى أرســـلتها إياها منذ أيام بعدما لاحظت غيابها عن الدرس العملى لمرتين متتاليتين، ولم أســـتطع أن أسأل عنها زميلاتها خوفًا من القيل والقال. قلبى يحدثنى أنها ستأتى اليوم. غيابها أكثر من ذلك قد يحرمها دخول الامتحـــان، واليوم هو آخر الدروس العملية قبل فترة التحضير للامتحان.

عندما دخلت القسم اليوم، لمحت غرفة رئيس القسم مغلقة. لم يكن هذا هو الحال فى وجود دكتور عادل. كان الدكتور عادل – رحمه الله – يأتى القسم فى وقت مبكرة ربما حتى قبل وصول العمال والموظفين فى القســـم. حتى أنه كان يأتى فى بعض أيام الأجازات. يجلس إلى مكتبه، يقرأ بعض الأبحاث، ويتابع الجديد فى المواقع العلمية. أما وقد أصبح الدكتور مدحت رئيسًا للقسم، فبقاء باب غرفته مغلقًا حتى التاسعة لم يكن بالأمر الغريب. دخلت إلى غرفة المعيدين، قرأت الموضوع الذى سأقوم بشرحه سريعا، وأخذت الحاسوب النقال، وانتقلت سريعًا إلى قاعة الدرس.

لم يكـــن من الصعب علىَّ أن أتبين أنها لم تأت بعد. إذ إن القاعة كانت

مظلمة قد غاب عنها ضياؤها. حسـنًا مـا زال هناك عشر دقائق على موعد بدء الـدرس. أعدلت من وضع نظارتـى فى توتر بادٍ، وظلت عينايـا معلقتين بباب القاعة. أنظر إلى توافـد الطلاب. مرت الدقائق العشرة، وكأنها ساعات، وحين شرعت فى بدء الدرس، وجدتها تدخل وفى عينيها كسرة لم أرها من قبل. اسـتأذنت وجلست إلى آخر القاعة، على غير العادة، وعيناهـا فى الأرض لم ترفعهما طوال الدرس. ترى ما الذى جرى؟!

حـين انتهيت من الشرح، رأيتها تخرج من باب القاعة فى عجل دون حتـى أن تلقى التحية إلى أحد. هممت أن ألحق بها، إلا أن الطلبة كانوا قد حاصرونى، ليسألوا عن بعض النقاط فى الدرس، وعن المراجعات النهائية التى لم تسـتكمل لأول مرة منذ سنوات، كذلك يتساءلون عن مواعيد تواجدى بالقسم خلال الفترة القادمة.

أجبت على بعض الاستفسـارات سريعًا، ثم استأذنت الطلاب على وعد بأننى سـأكون متواجدا بغرفة المعيدين للإجابة عن أسئلتهم فى الأيام المقبلة، وخرجت بسرعة أبحـث عنها. فى طريقى لمحتها تقف بصحبة بعض من زميلاتها، ودمـوع تملأ مقلتيها. جعلت أراقبها عن بعد أنتظر أن تبتعـد عن أصحابها أو تحين لى الفرصة لمحادثتها، إلا أن الدكتور مدحت اعترض طريقى ليحجب عنى المشهد ثم قال بابتسامة لم أعهدها على وجهه:

- تعالى يا أيمن عاوزك حالا.

– حاضر يا دكتور.. دقيقة واحدة وأكون عند حضرتك.

– لأ تعالى معايا عاوزك.

تبعته إلى مكتبه، حيث أدخلنى معه متجاهلًا أحد الأساتذة الذى كان بإنتظاره.

– أقعد يا أيمن.. تشرب إيه.

– ولا حاجة يا دكتور.

– لأ لازم.

– أى حاجة.

أمسك بالهاتف الموجود على مكتبه، وتحدث إلى السكرتيرة بأن تحضر له قهوته وكوبًا من الشاى، ثم توجه إلىَّ قائلًا:

– عندى أخبار حلوة ليك يا أيمن.

– خير يا دكتور إن شاء الله؟!

– الطلبة اختارتك أحسن معيد فى السنوات الأكاديمية التلاتة فى استفتاء كان عامله الاتحاد، والقسم هيكرمك فى مجلسه اللى جاى.

أجبت بابتسامة متعجبة:

– أنا.. بجد.

– طبعًا يا أيمن.. إنت مجتهد.. والطلبة بيحبوك وده شىء ملحوظ.

– الحمد لله يا دكتور.. ده فضل من ربنا.

– الحاجه التانية بقى يا سـيدى.. مجلس القسم رشحك لقافلة طبية لدولة تشاد.. أنا عارف إنك بتحب الخير وبتهتم بالعمل العام.. عشان كده أنا اخترتك تروح القافلة دى.

– بس يا دكتور...

– بس أيه يا أيمن؟ بقولك أنا بنفسـى اللى رشـحتك. وبعدين دى هتكون بعد امتحانات الطلبة.. بعد العيد كده.

– كنت عاوز أركز فى رسالة الماجستير.

أشـعل سيجارًا من النوع الفاخر يسـتخدمه عادة فى أوقات الرضا وحالاته المزاجية السعيدة ثم تابع قائلًا:

– إنت عارف إن الرسـالة دى ف إيدينا.. ممكن ف شـهر أو إتنين تكون مناقش، وممكن تقعد سنة جنب رسالتك، وهى جاهزة.

لم أرد فقط أومأت برأسى فتابع قائلًا:

– أنا عاوزك فى خلال الشـهر اللى جاى ده تقفل كل اللى باقيلك فى الرسـالة، وتعرضه علىَّ.. علشان أول ما ترجع من القافلة هحدد لك ميعاد مناقشة.

– إن شاء الله يا دكتور.

– فين بقى الأوراق اللى كنت قايلك تجيبهالى.

– ما أنا جبتها وسيبتها لحضرتك مع السكرتيرة من أسبوع.

– لأ أنا عاوز الأصل.. خلى نسخة معاك، وهاتلى أصل البروتوكول اللى عليه التوقيعات، وأصل أوراق التسجيل.

– الأصول!

– أنت مش عارف إن لجنة الإشراف إتغيرت.. طبيعى فى حاجات لازم تتعدل فى الأصل.. وإلا الرسالة هتقف.

خرجت من مكتب الدكتور مدحت متعجبًا، ولكن لا وقت للعجب. علىَّ أن أقابلها وأتفهم سبب دموعها. جعلت أُمنى نفسى أنها ما زالت موجودة. لابد أن أراها. أسرعت الخطا إلى نهاية الطرقة، فلم أجدها، ولا حتى على السلم، ولا فى الطرقات المجاورة. حتى الطلبة الذين كانوا بانتظارى، غابوا عن المشهد أيضا.

كافتيريا الكلية أيضا كانت شبه خاوية، إلا قليل من الطلبة يتناثرون فى محيط الكافتيريا الواسعة. لمحت من بعيد نادر صديقى، وحين اقتربت منه وجدته يجلس بصحبة فتاة، لم أتبين ملامحها إلا أن ابتسامة ذات معنى كانت ترتسم على وجه كل منهما. لم أشأ أن أقطع حديثهما، اتجهت إلى طاولة بعيدة نسبيًا، وجعلت أفكر فى أمورى التى أشعر أنها تتعقد يوما بعد يوم.

أسئلة كثيرة جعلت تدور فى ذهنى؛ كيف سألقى دينا أو أسأل عنها؟ كيف أقف جوارها، وأخفف عنها ما تعانيه؟ ثم ماذا عن الرسالة، ولما طلب منى دكتور مدحت كل الأوراق الأصلية للبحث؟ وهل أراجعه

فى طلبه؟! كيف لى أن أفعل ذلك! وماذا عن سـفرى إلى تشـاد؟ نعم كنت أتمنى مثل هذا الأمر، ولكـن فى ظروف غير التى أمر بها. أفقت على صوت نادر:

– أيه يا عم أيمن النور ده.. عاش من شافك.

– أيه يابنى إنت فينك وأيه أخبارك؟ أقعد يا بنى.

– لا معلش معايا ناس.. ماتيجى نتغدى مع بعض النهارده. خارجين أنا وأحمد وعزام. هنتغدى في مطعم فى بلازا.

– مش عارف والله.. مشغول جامد بس هحاول إن شاء الله.

– عموما إحنا هنتقابل على الساعه 3:00 لو حبيت تيجى كلمنى.. أنا همشى بقى.. سلام.

– ماشى يا عم.. الله يسهلك.

إسترحت قليلا فى كافيتريا الكلية قبل أن أذهب إلى معمل حيوانات التجارب فى الدور الأرضى للقسم. سـألت عن عم رضا فلم أجده. أخبرونى أنه ذهب مع أحد المعيدين إلى قسم التشريح. هاتفته فأخبرنى أنه قارب على الوصول، وطلب منـى أن أنتظره لدقائق. بالفعل لم تمر دقائق إلا ورأيته يدخل على بابتسامته المعهودة ووجهه السمح قائلا:

– إتأخرت عليك.

– لا أبدًا.

– إنت حبيبى يا دكتور أيمن، وربنا يعلم بعزك أد إيه.

تابعته بإبتسامة وهو يفتح غرفته ويقول:

– إنـــت عارف يا دكتور أيمن..أنا بحب فيك أنك بتعمل شـــغلك بضمير.. شوف أنا بقالى كام سنة هنا.. قليل أوى اللى عندهم ضمير.. مصطلـــح «اضرب البحث» أو «فبرك البحث» بنســـمعه كتير.. اللى يقولـــك نعمل عدد أقل مـــن حيوانات التجـــارب، ويكون كاتب فى البحث عدد كبير.. واللى يكون كاتب أنه هيتابع التجربة سنة، ويتابعهم أسبوعين بس.. واللى يقولى شوفلى أى شغل قديم جاهز عندك.. كله عاوز يخلص وخلاص مفيش أمانة خالص.

– ربنا يعافينا يا عم رضا.

– الناس خلاص باعت ضمايرها.. حسبى الله ونعم الوكيل.

– ورينـــى يـــلا الأرانب بتاعتنا.. لاحســـن خلاص بقـــى لنا أيام. وهتوحشنى يا عم رضا والله. إنت والأرانب بتاعتك.

جعل عم رضا يعرض عـــلىَّ الأرانب واحدًا تلو الآخر، وظل يسرد حكاياته المســـلية عن عالمه الـــذى يعيش به وســـط الحيوانات، بعيدا عن غش البشر. أما أنا فلم أكن أكاد أســـمع منه كلمة، إذ كنت أكتب تعليقاتى مستبشرًا بالنتائج الإيجابية والمبهرة للبحث.

بعد ما يقرب الساعتين من الجهد المتواصل من متابعة حالة حيوانات التجارب، وعمل بعض الفحوصات، وســـحب العينات، وتسجيل الإستنتاجات شـــكرت عم رضا الذى كان مشغولًا بمعمله، وترتيب

ورعاية باقى حيوانات التجارب، وإنصرفت من المعمل بإبتسامة رضا عن النتائج.

ما إن خرجت من باب المعمل حتى تذكرت دينا، وما كان بها اليوم، تورارت إبتسامتى خلف سور التساؤلات الكثيرة. وكيف لى أن أبتسم وقلبى لا يستطيع أن ينسى مشـــهد دموع عينيها، وانكسارتها فى ذات الصباح. ماذا على أن أفعل الآن، لقد كانت الساعة على مشارف الثالثة عصرًا. لم يكن لدى طعام فى الشقة، وليس لدى قدرة على الطهو اليوم وبقى بضع ساعات على موعد العيادة، إذًا لا حل غير أن أمر على أحد المطاعم أتناول بها وجبة الغداء.

تذكرت دعوة نـــادر لى على الغداء، فهاتفتـــه ليخبرنى أنه فى طريقه إلى المطعم، وعندما أخبرته أنى ســـآتى معهم، عبر عن سعادته لذلك، وعرض أن يمر على بســـيارته، ليوصلنى، وبالفعل التقيته، وذهبنا معًا إلى المطعم، لنجد أحمد وعزام فى انتظارنا. فبادرنى عزام قائلا:

– يااااه..أيمن العلّامة بتاعنا.. أيه يا عم فينك.. بيقولوا إنك بقيت رئيس قسم يابنى.

فتدخل أحمد:

– لا يا عم دا أيمن بقى حبيب.. أخبار عروســـتنا إيه؟ خلصت تالته ولا كانت ف تانية، ولا أيه مش فاكر.

فرد عزام بضحكته المميزة التـــى مازالت تخرج تلقائية لتلفت أنظار

المحيطين:

– يا نهار.. دانت طلعت خلبوص يا أيمن.. إنت ليك فى الصغيرين.. يا سفاح الأندرايدج.

أجبت باستنكار شديد:

– إنتوا ناويين تحفلوا.. لو كده قولولى، وأنا همشى. أنا مش ناقص.. اللى فيا مكفينى.. جاى أفك معاكم شويه مش كده.

رد عزام بسرعة:

– أيه يا عم مالك خلقك ضاق كده.. إحنا بنهزر.. إنت عارف، ولا إنت نسيت هزارنا، ولا عشان بقيت عم المهم.

أسرع أحمد لينقذ الموقف:

– أحنا نطلب الأكل الأول لاحسن هموت من الجوع، ولا إنتوا مش جعانين؟ وبعدين نبقى نفكر الحفلة النهارده على مين.

نادى أحمد على النادل ثم طلب كل منا وجبته قبل أن يؤكد عليه أحمد سرعة إحضار الطعام، ثم بدأ حديثه قائلاً:

– خلاص نخلى الحفلة النهارده على نادر اللى شكله داخل على قصة حب جديدة. ونحب نعرف منه هل هى قصة حب حقيقية؟ أم أنها زى كل مرة؟

رد نادر مبعدًا الكلام عن نفسه:

– يا عم خلينا نطمن على أيمـــن الأول.. بيقولك اللى فيا مكفينى.. مالك يابنى.. هما بتوع الأكاديمى كمان عندهم مشاكل.

بعد شـــهقة عنيفة، بدأت أحكى لهم عن مشاكلى مع رئيس القسم، والسفرية المفاجأة إلى تشاد، وتجنبت الحديث عن دينا. رد أحمد:

– ومين فينا معندوش مشـــاكل مـــع المشرفين على الرســـالة. دا أنا المشرف لما زهـــق منى ومن إلحاحى بعتنى للمـــشرف التانى اللى قالها لى صراحة «إهدى شـــوية.. انت مش هتناقش دلوقتى.. لسه زمايلك المعيدين مناقشـــوش.. هو معرفـــش يفرملك، وبعتك ليـــا، وأنا اللى هعرف أفرملك. إهدى بقـــى، ومتتصلش بيا تانى، وانا لما يجيلى مزاج هبقى أبعت لك» .

سكت أحمد برهه. التقت خلالها أنفاســـه وكأنما كان يتذكر الموقف أمام عينية ثم إستعاد إبتسامته قبل أن يقول:

– يا عم كله بيعدى.. بعدين بقى «تشاد» حد يطول.. يا ريت تاخدنا معاك لو ينفع. أنا ممكن أروح أعيش هناك، وأخد مراتى كمان معايا. يا عم خد الامور ببساطه، ومتعقدهاش.

ظـــل كل منهم يحكى عما يحدث معه فى القســـم، وكيف يتعنت معه مشرفيه، وكيف يتعاملون هم مع هذه الأمور بســـعة صدر، ثم حكى لنـــا نادر عن قصة حبه الجديدة، وكيـــف أنها تختلف عن كل القصص الأخـــرى. تلك الجملة التى كان يقولها عن حكايته مع كل فتاة جديدة

يعرفها، وتطرق أحمـــد وعزام للحديث عن حياتهم الزوجية، وما فيها من دفء الأسرة وعن أول مولود ومداعباته.

مر الوقت بسرعة. استأذنتهم فى الانصراف كى لا أتأخر على موعد العيادة. عدت إلى الشقة. غيرت ملابسى وألقيت نظرة على صفحتها التى كانت كما هى، ورسالتى التى لم تصل إلى عينيها بعد، ثم أسرعت إلى عيادة الصدرية لأستكمل يومى.

الفصل الرابع

تشاد

البعد الآخر والمهمل من امتداد مصر الأفريقى

(12)

«كابتن طائرة الخطوط الإثيوبية يرحب بالركاب، ويعلن عن إقلاع الرحلة رقم 258 المتجهة إلى أديس أبابا، فجر يوم السبت الموافق الثالث عشر من شهر يوليو، ويؤكد على الركاب تعليمات الأمان»

وأنا أجلس فى المقعد المجاور للنافذة، ومعنا على متن الطائرة أربعة وخمسون من الوفد الطبى والطاقم المساعد للقافلة الطبية المتجهة إلى دولة تشاد، نملأ مقاعد الدرجة الاقتصادية، فى حين يصاحبنا مندوب البنك الداعم للقافلة الذى يجلس دوننا فى مقاعد درجة رجال الأعمال. رجل تونسى خمسينى أبيض الوجه بدين بعض الشىء، يعمل مشرفًا فى قسم الإغاثه لدى أحد البنوك الخاصة الشهيرة. ألقى علينا التحية، ووعدنا بالدعم الكامل لجهودنا، وتقدير البنك لما نقدمه من عطاء، ثم استأذن.

لا تتوفر رحلات مباشرة من مصر إلى أنجمينا، لعل هذا ما جعلنا نغادر على الخطوط الجوية الإثيوبية. رحلة تستغرق إجماليًا حوالى عشر ساعات، يتخللها ثلاث ساعات انتظار فى مطار أديس أبابا. قبل الرحلة أخذنا التطعيمات اللازمة للسفر إلى الدول التى تنتشر بها بعض الأوبئة كتشاد، لتصاحبنا النوتة الصفراء بسجل الدخول، ثم انتظرنا حتى تجمع كل المرافقين فى الرحلة، ودخلنا سويًا إلى المطار. سجلنا

أوراقنا لدى موظفى المطار، وراجعنا الحقائب، ثم انتظرنا فوق الساعة عند البوابة المشار إليها بلوحة الإعلانات حتى فتحت، ومن ثم نقلتنا أتوبيسات المطار إلى سلالم الطائرة حيث استقر كل منا على مقعده.

تعرفت على الرفيق المجاور لى بالمقعد –دكتور معتز– يعمل مدرسًا بقسم جراحة العيون بالكلية. دقائق قليلة وانقطع التواصل بيننا، حيث استأذننى فى أن ينام، فالرحلة شاقة، وعليه أن يستريح قليلا قبل الوصول، خاصة وأن الساعة قد قاربت على الرابعة فجرًا.

لم يزُر النوم عينى برغم الإرهاق الشديد، جلست استرجع الأحداث المتلاحقة التى مرت بى خلال الشهر الماضى. منذ أخبرنى الدكتور مدحت بأنه رشحنى للسفر مع القافلة، والتغيرات المفاجئة التى طرأت على علاقته بى. اهتمامه الشديد بالبحث، وتعاونه معى فى أعماله، حتى أنه طلب منى يوما أن يصاحبنى إلى المعمل ليرى الخطوات العملية التى أقوم بها بنفسه. هناك تعرف على عم رضا وأجزل له العطاء، وتفقد مجموعات العمل الخاصة بالبحث، وتعرف على الخطوات التى أنجزتها. كان منبهرًا بما تم إنجازه حتى الآن، ووعدنى أن يعجل مناقشتى وترقيتى حال عودتى من السفر. كل هذا شجعنى أن أنهى الأعمال البحثية، وصياغة النتائج بسرعة وبدقة قبل السفر.

عجيبة حقًا هذه الشخصية بتقلباتها –سخطها ورضاها– كان يمر علىَّ أوقات أشعر وكأنه شخص آخر غير الذى عرفناه خلال السنوات السابقة، وأوقات أخرى أشعر وكأنه لن يتغير، وإن حاول إظهار

النقيض. ربما فى ذات الموقف تجد القسوة والشدة بين لحظات الرضا.

لن أنسى يوم أحضرت له الأوراق التى طلبها منى للبحث، وكيف كان مبتهجًا يومها، ويبدو أنه ينتشى لمجرد أن يجد من ينفذ كلامه حرفيًا دون جـــدال. يومها غبت بعض الوقت بصحبـــة رفاقى، الذين كانوا يحتفلون بعيد ميلاد «إيمان» –زميلتنا– بإحدى قاعات القســـم. وبين بهجتنا وضحكاتنا دخل دكتور مدحت بوجه غير الذى قابلنى به أول اليـــوم، ليصرخ بصوت أجزم أنه أزعج ســـكان مقابر المنارة المجاورة للكلية:

– انتوا فاكرين نفســـكوا فين هنا.. ده مش كافية يا ســـادة.. ده قسم محترم مينفعش فيه المســـخرة دى..المسئولين عن المهزلة دى هيتحولوا للتحقيق، واللى حصل ده مش هيعدى على خير.

إنهـــارت إيمان، التى لم تتوقع أبدًا أمرًا كهـــذا، فقد اعتدنا أن نحتفل بمناسباتنا سويًا داخل القســـم. اعتدنا أن نتعامل كأسرة، نقف معًا فى أحزاننا وأفراحنـــا أمام مرأى دكتور مدحت، وبمشـــاركة الكثير من الأســـاتذة. ربما هى المرة الأولى بعد تولى دكتور مدحت رئاسة القسم، ولكنه لم يكن يعترض على هذا الأمر من قبل. حاول بعض الأســـاتذة المشاركين معنا تهدئة دكتور مدحت، فطالهم شىء من التوبيخ حين قال ل د. رأفت:

– عيب يا رأفت لم ييجى منك الكلام ده.. وبعدين ســـعادتك مش بتهتـــم تيجى فى الامتحانـــات والمراجعات.. لكن فى المســـخرة لازم تشرف.

وبين صيحات الدكتـــور مدحت نظر إلىَّ، ثم طلب منى أن أتبعه إلى مكتبـــه. يا إلهى يريدنى الآن، وهو بكل هذا الكم من الســـخط تمنيت لو تبتلعنى الأرض فلا ألقـــاه، أو أن يطوى يومى لأفيق وقد مر لقائى معه. انصعت لأوامره وتبعته إلى مكتبه، وبعد صمت دام لدقائق. أنهى خلالهما فنجان قهوته، وسيجارة أشعلها من سابقتها، وأنا أحترق من القلق، بدأنى بالكلام قائلًا:

– أنا بصيت على الورق اللى إنت جبتهولى كله.. ناقصه الأصل بتاع موافقة لجنة أخلاقيات المهنة.

أجبت وأنا فى غاية الارتباك:

– والله يـــا دكتور قلبت الدنيا عليهـــا وملقيتهاش.. مش فاكر ممكن تكون راحت فين بس فعلا والله مش لاقيها.

قال بذات الوجه المتجهم:

– أنـــا أكتر حاجة ممكن تضايقنى يا أيمـــن إن اللى قدامى يقعد يلف ويدور.

– والله يا دكتـــور دى الحقيقة، وأوعد حضرتـــك إنى هقلب الدنيا عليها تانى لحد ما آلاقيها.

سمح لى بعد ذلك بالانصراف. لم أفهمه يومًا. كان شخصية غامضة للجميع. شخصية لا تعرف باطنها من ظاهرها.

أفاق دكتور معتز – رفيقى فى رحلة الطائرة – من سباته ثم فرك عينيه،

ونظر إلىَّ قائلًا:

– إنت منمتش يا بنى ولا إيه؟

انتبهت لتوى أنه يحدثنى، فابتسمت ثم قلت:

– مش عارف أنام..

– يابنى ده لسه المشوار طويل، ويادوب هنوصل مش هنلحق نرتاح.. أوعى تكون فاكر إنها فسحة.. الموضوع متعب ومرهق جدًا.. الجو هناك صعب والظروف اللى هنشتغل فيها قياسية.. يعنى لو مارتحتش قبلها كويس هتتعب جدًا.. أنا دى تانى مرة أروح القافلة دى، وعارف كويس الجو هناك عامل إزاى.

– والله يا دكتور معتز أنا مرهق جدًا.. بس الواحد دماغه مشغولة بحاجات كتير أوى مخلياه مش عارف ينام.

– ياعم إنت لازم تفصل خالص.. إنسى كل اللى إنت سايبه فى مصر علشان متحملش نفسك فوق طاقتها.

قلت محاولًا التخلص من ثقل على كتفى:

– والله القصة كلها إن الرسالة بتاعتى مخلصها، والمفروض خلاص تدخل مجلس القسم.. كمان أبويا كان قلقان علىَّ أوى وأنا رايح وكان عمال يقوللى بلاش يابنى تروح.. ده عيط وأنا بودعه ودى أول مرة أشوف أبويا بيعيط من ساعة وفاة جدى الله يرحمه.. بيقوللى إنه حلم حِلم وحش وخايف علىَّ.. ده غير إن أنا لسه ممتحن الزمالة البريطانية الجزء التانى، وقلقان الصراحة من النتيجة.. أول مرة أدخل إمتحان

وأنا مش مستعد كويس.

فرد بهدوء من يده بالماء:

– أيه يا عم كل ده..إنت زاحم دماغك كده ليه.. واحدة واحدة الرسالة مش هتطير يعنى هتناقش الشـــهر ده، ولا الشهر الجاى مش فارقة أهم حاجة رضا المشرفين، والأمور كلها بتعدى.. وبالنسبة لأبوك فالأبهات كلها كـــده.. أنا أبويا الله يرحمه كان لم يعوزنى ماطلعش رحلة مثلا، كان يقعد يقولى أنا حلمت حلم وحش وخايف لو طلعت يحصلك حاجة.

ثم تابع فى استبساط:

–وأيه تانى؟.. زمالة أيه اللى فى الفارما دى؟

–لأ دى مش زماله فارماكولوجى دى زماله فى الباطنة.

–باطنه؟!

–أيون.. أنا بشتغل مع دكتور نادر أبو الغيط فى العيادة، وبحاول أدرس زمالة فى الباطنة علشان أقدر أفتح عيادة بعد كده.

–يا عم ما تفتح عياده زى مانت عاوز.. هو حد بيدَوّر.

–لا يـــا عم أنا عاوز أذاكر وأقرا وأتابع الجديد.. وده مش هيحصل فى وسط انشغالى كده إلا لو أنا بدرس الحاجه دى.

– والله إنت جدع.. بس ده ميمنعش برضو إنك تســـيب الأفكار دى لوقتها.. سيبها على الله وركز فى اللى إحنا رايحينه.. يمكن تعجبك الحياة فى تشاد وتتجوز وتقعد هناك.

وتبع حديثه بضحكات عالية، قطعها كابتن الطائرة بإعلانه عن ضرورة ربط أحزمة الأمان، لاستعداد الطائرة للهبوط بمطار أديس أبابا. كانت الساعة فى يدى تخطت السادسة صباحًا. بدأت بنايات وشوارع أديس أبابا تلوح فى الأفق. تبدو هناك آثار حفر لمشاريع ضخمة. أخبرنى أحد المهندسين المسافرين معنا على متن الطائرة نفسها أن أثيوبيا تتطور بشكل كبير جدًا. ثمة مشاريع تنموية واقتصادية عملاقة تقام على أرض الواقع، وتوقَعَ نقلة سريعة لمكانة إثيوبيا على الخريطة خلال السنوات القادمة .

حين هبطت الطائرة، كانت ساعة المطار تشير إلى الثامنة إلا خمس دقائق. يسبقوننا بساعة فى التوقيت، فساعتى ما زالت السابعة إلا خمس دقائق. المطار كبير جدًا، ومزدحم بطريقة غير عادية. تفرقنا على موعد للتجمع عند البوابة بعد ساعتين. حيث ستقلع الطائرة فى العاشرة والنصف. كان أول ما فكرت به أن أجد طريقة لأطمئن بها أبى إلى وصولى للمطار. ذلك الأمر الذى فشلت فى عمله خلال نصف ساعة. سألت بعدها عن مكان للصلاة، ومن ثم توضات وصليت الصبح، ثم غفوت بالمسجد.

أفقت بعدها على ضوضاء لبعض المتواجدين فى المسجد، من أصول عربية بدا من لهجتهم أنهم من غرب أفريقيا. نظرت فى ساعاتى، فوجدتها التاسعة والربع. دقائق إضافية قبل أن أستوعب أن طائرتى قد بقى عليها أقل من نصف ساعة، وعلىَّ الإسراع إلى البوابة.

عند البوابة كان الجميع فى انتظارى، العدد مكتمل إلا واحد. أسرعت الخطا، وانضممت إلى المجموعة، وسط عبارات الاعتذار التى جعلت تصدر منى إلى الجميع. انتقلنـــا إلى الطائرة، وأخذ كل منا مقعده، وقد كان مقعدى لحسن طالعى مجاورًا للنافذة. لم أنسَ كذلك أن ألقى التحية على دكتور معتز الذى كان يجلس بالمقعد المجاور.

حسنًا، علينا أن نبحر من جديد فى سماء أفريقيا أربع ساعات إضافية، لنصل إلى «أنجمينا» . رفعت نظارتى، وجعلت أمســـح على وجهى، ثم مددت رأســـى، وهممت بتصفح كتيب ذكرياتى من عقلى الباطن. تذكرت دينا، أو لنقل حضرنى المشهد الأخير لى معها، فهى لم تغب عن ذهنى من الأساس. بدأت أسترجع تفاصيل لقائنا الأخير قبل السفر، وصوتها لم يغب عن مسامعى، لا يزال يتردد فى أذنى، وهى تقول:

– حضرتك من أحسن الشخصيات اللى قابلتها.. بس..

صوت الكابتن – قائـــد الطائرة – يقطع تفكيرى، ليرحب بالركاب بكلماته الركيكة المحفوظة، ثم يؤكد تعليمات الأمان ذاتها لا جديد. ها هو معتز يستدير إلىَّ، ليخبرنى أنه على أن أنام لأستريح من عناء يلاحقنا هناك، ثـــم يخبرنى أنه خبير بهـــذا البلد. فقد زاره من قبـــل فى القافلة السابقة. يؤكد أن درجات الحرارة تتخطى الأربعين أحيانًا، والرطوبة عالية جدًا. اعتدلت فى جلســـتى، وأعدت نظارتى إلى مســـكنها فوق أنفى وأذني. أغلقت كتيـــب ذكرياتى، وانتبهت إلى دكتور معتز، الذى تابع قائلًا:

– إنت عارف إحنا هنقعد فين؟

– هما تقريبًا قالولنا على اسم الفندق بس أنا مش فاكره.

– بص يا سيدى ده فندق إسمه شنغهاى.. فندق صغير كده صاحبته ست صينية.. إنت عارف.. البنك بيعرض كل مرة نقعد فى فندق أعلى زى الهيلتون مثلًا.. بس القائمين على القافلة بيرفضوا علشـــان يوفروا فلوس الإقامة، لصرفها على الحالات المحتاجة.

ابتسمت ابتسامة رضا، ثم قلت:

– طب كويس والله.. ربنا يجازيهم خير.. والمستشـــفى اللى هنشتغل فيها بقى قريبة؟

– مش بعيده 10 دقايق بالعربية.. اسمها «مستشفى الصداقة الصينية التشادية».. ودى من أكبر المستشفيات اللى فى العاصمة، معمولة بمنحة من الصين.. رغم كده إمكانياتها البشرية والمادية محدودة جدًا.

– هى أيه حكاية الصين؟

– الصـــين بتغزو العالم كله..إنت بتشـــوف الصينيين عندنا فى مصر أد إيه؟ فى كل دولة بروحهـــا، بتفاجئ بكمية الصينيين اللى موجودين فيها ونشـــاطهم.. بس إنت عارف مش بس الصين.. تركيا كمان ليها إسهامات كبيره هناك من مدارس ودور رعاية.

– طب ومصر فين من ده؟

– مصر دورهـــا فى أفريقيا بينحصر بطريقة ملحوظة.. إســـهاماتنا موجودة فى كل حتـــه فى أفريقيا.. والمقاولين العرب محدش يقدر ينكر

دورها فى بناء دول بالكامل.. لكن الدور ده بيتقلص مع الأزمات اللى بنمر بيها.. وبقى بينحصر فى الكام قافلة اللى بنعملهم والمقاولين العرب اللى بتحاول تحافظ على مكانتها.

ظل يحدثنى عن تراجع دور مصر فى أفريقيا، وتنامى دور دول آخرى كالصين وتركيا، وحتى الكيان الصهيونى الذى يمد بأذرعه فى العديد من الدول الأفريقية مثل إثيوبيا، وأثر ذلك على مستقبل المنطقة، ثم جعل يصف الحياة فى تشاد. حيث الطبيعة القاحلة الجرداء، فلا طرق معبدة ولا خدمات، بالإضافة لضعف شبكات الاتصالات، مع فقر مدقع يصيب أغلب السكان. حديث ثرى، جعلنى أملك تصورًا عن بلد أزوره لأول مرة فى حياتى، وهون من وعثاء السفر. حيث أننا ما إن إنتهينا من الحديث عن الوضع فى تشاد، حتى أعلن قائد الطائرة عن قرب موعد الهبوط.

****

مطار أنجمينا بدائى للغاية، ومع ذلك ستتفاجأ بالتشديدات الأمنية غير العادية. ممنوع أخذ الصور التذكارية. ستقف كذلك للتصوير والبصمة أمام أجهزة حديثة، لا تتناسب إطلاقًا مع عشوائية الإجراءات، وبدائية الإمكانيات. كذلك فقد وقفنا كثيرًا فى انتظار الإفراج عن المعدات والأجهزة، والأدوية التى كانت بصحبتنا. مع علمهم المسبق بقدوم القافلة، وحصولنا على التصاريح اللازمة لهذه المعدات.

انتقلنا بعيدًا عن صخب النقاشات إلى مقربة من بوابة الخروج، حيث كان بانتظارنـــا دكتور محمد عبد الهادى. شـــخصية فريدة من الصعب تكرارها، شاب فى منتصف العقد الرابع من عمره، دقيق الملامح هادئ الطباع. تبدو على وجهه ملامح الشـــخصية المصرية، فلونه الخمرى، وعيونه البنية الداكنة، وشعره الأسود المجعد، وجسده النحيل يرسمان صورة لمصرى أصيل، يناضل منفردًا فى مجاهل أفريقيا ليحمل راية مصر فى بلاد انشغلت مصر عنها لعقود.

كان الدكتور «عبد الهادى» أخصائى الجراحة العامة يعمل منذ ثلاث سنوات بمستشـــفى الصداقة حين تعاقدوا معه فى نهاية قافلة كان من أنشط المشـــاركين فيها. هو الآن يشرف على القســـم، ويدرب صغار الأطباء، وحتـــى الفنيين على العمليـــات الجراحية. كذلك فهو يحمل الدور الأكبر فى هذه القافلة. يعد لها منذ شهور، يتابع التسجيل لحالات الانتظار للكشف والعمليات والفحوصات، ويعد الأماكن التى سيتم فيها الكشـــف وإجراء الفحوصات والعمليات، ثم هو من قام بحجز أماكن الإقامة، ورتب مواعيد زياراتنا خلال فترة القافلة.

ألقى علينا التحية، وصافحنا بحرارة، كأنما يعرفنا منذ سنين، ثم جعل يتحدث مع أحد المرافقين له بلغة ظننتها «تشـــادية» خاصة بأصحاب البلـــد، إلا أننى علمت بعدهـــا أنهم يتحدثون اللغـــة العربية، ولكن بلهجتهم المحلية. ما أخبرنى به لاحقًا دكتور معتز أن اللغة الرســـمية بتشاد هى الفرنسية، إلا أن أغلبية السكان يجيدون اللغة العربية.

بعد ذلك اصطحبنا هذا الرفيق التشادى إلى سيارات كانت بانتظارنا بالخارج نقلتنا إلى الفندق. كان أول ما تبادر إلى ذهنى أن أبى سيكون فى غاية القلق. ذلك أنه لم يطمئن علىَّ منذ كنت فى مطار القاهرة. استأذنت «موسى»رفيقنا التشـــادى فى مكالمة دولية من هاتفه، ثم هاتفت أبى، وطمأنته عـــلىَّ. بكى مجددًا وهو يحدثنى، وظل يؤكـــد علىَّ أن أتوخى الحرص فى هذه البلاد الغريبة، حتى انقطع الاتصال، ويبدو أن رصيد موســـى من الدقائق الدولية قد نفد. أعدت له هاتفه وشـــكرته كثيرًا، وطلبـــت من أحد المشرفين على الرحلة خط تليفون محلى حتى يمكننى أن أطمئن على أبى بـــين الحين والآخر، وعدنى بـــأن يكون ذلك من صباح الغد، ثـــم بدأنا نتوزع على أماكن الإقامة. كان الدكتور معتز قد أضافنى معه فى الغرفة التى سيرافقنا فيها أيضًا دكتور هانى أستاذ بقسم الباثولوجيا الإكلينيكية «التحاليل الطبية» .

أبلغونا بعد ذلك بأن اللقاء مع الســـفير المصرى بتشاد، والذى كان مقررًا له اليوم قد تأجل إلى الغد، بســـبب عـــدم الانتهاء من إجراءات دخول المعدات والأجهزة. حســـنًا، يمكننـــا أن نرتاح بعض الوقت. أكدوا علينا موعد التجمع، والذى ســـيكون فى السابعة صباح الغد، بمطعـــم الفندق بعد تناول وجبة الإفطار. عندما وصلنا الغرفة طلبت من موظفى الاســـتقبال كلمة المرور المســـتخدمة لخدمة الإنترنت، ثم سجلت الدخول إلى عالمى الافتراضى. كان أول ما فعلت –كما اعتدت – هو أننى تابعـــت صفحة دينا على «الفيس بوك» ، وجدتها قد غيرت

حالتها منذ ساعات قليلة، وكتبت:

«أســتودعكم الله الذى لا تضيع ودائعه.. دعواتكم.. ســتظلوا فى قلبى».

دونما تفكيرًا، كتبت لها ردًا:

«ربنا يوفقك فى اختياراتك.. ويرزقك السعادة أينما كنتِ».

لم يصل الرد، فقد انقطــع الاتصال بالإنترنت ويبدو أن هذا الوضع طبيعيًا هنا، فوســط الفقر والبدائية، الإنترنت رفاهية ليس من السهل الحصول عليها. أغلقت الهاتف، وانضممت إلى حديث فتح منذ قليل بــين دكتور معتز ودكتــور هانى عن جدول الغــد. حيث الإفطار فى الفندق من الســاعة السادسة إلى السابعة موعد التجمع، ثم الانطلاق من أمام الفندق إلى المستشــفى فى السابعة والربع، حيث سينشغل كلٌ منا فى التحضير لعمله الذى يبدأ صبيحة يوم الإثنين. ســيكون علىَّ أن أشرف على تجهيز الأدوية، وأصنفها، وأوزعها إلى الأقسام المختلفة، ثم تجهيز عيادة الصدرية والحساسية التى سأعمل بها.

****

فى مقر السفارة تجمعنا فى قاعة صغيرة تســعنا بالكاد. انتظرنا قرابة الســاعة حضور السفير، الذى كان منشغلًا بأحد اللقاءات، فالموعد لم يكن مقررًا له اليوم. حين وصل جلس بيننا، وألقى علينا التحية ثم قال:

– أنا مش هتكلم بشكل رسمى كسفير لبلد مع وفد جاى من بلده..

أنا هتكلم كواحد منكم..

صمت برهة ثم تابع قائلًا:

– الحقيقة إن إنتوا هنا بتقوموا بمهمتين.. مهمة إنسانية، وأنا عارف إن ده هو اللى جمعكوا كلكوا، وثقوا تمامًا إن الناس اللى هنا فى أشد الحاجة إليكم.. واللى جه هنا قبل كده عـــارف الكلام ده.. لكن المهمة التانية هى إن إنتوا بتمثلوا بلدكوا هنا.. كل واحد فيكوا ســـفير لبلده.. إنتو عارفين.. الناس اللى هنا أو حتى اللى بييجى هنا من المصريين مايعرفش محمود النايل سفير مصر.. لكن يعرفوا دكتور محمد عبد الهادى كويس.

ثم نظر له، فقد كان يجلس على يمينه وابتسم، ثم تابع قائلًا:

– الناس هنا تثمن المعروف.. وبتقـــدر صاحبه ولما تتعاملوا معاهم هتعرفوا أد أيه هما بيحبوا د. محمد لإخلاصه وتفانيه.

ثم ختم كلامه بـ:

– كل الدعم ليكم.. وأى حاجه تحتاجوها إحنا تحت أمركم.

تحدث بعد ذلك القائمون عـــلى القافلة عن المعوقات التى يقابلونها أحيانًا، وبعض المضايقـــات الأمنية، إلا أنه أبدى عجزه عن تغيير هذا الواقع الأمنى الذى يقيد الحركة فى البـــلاد منذ تولى الرئيس «إدريس ديبـــى» مقاليد الحكم، وأكد أنه شـــخصيًا يجد تقييـــدًا أمنيًا فى بعض تحركاته.

لم يستمر اللقاء طويلًا حيث اعتذر السفير لانشغاله، وانتقلنا بعدها

إلى الفندق. تناولنا عشـــاءً خفيفًا، وتم توزيع خطوط محمول لكل منا، فأسرعت لأطمئن أبى قبل أن أنضم الى الزملاء فى اســـتراحة الفندق. كانـــوا يتحدثون عن الأيام المقبلة. بدا الدكتـــور هانى متعبًا جدًا لكبر سنه، ومشقة العمل عليه فى هذا الجو، ثم بدأ بالقول:

– هو كل الأيام هتكون كده؟

رد معتز مبشرًا:

– يا باشا النهارده أخف يوم.. الشغل اللى بجد هيبتدى بكره.

تظاهر د. هانى بالفزع، ثم قال:

– ليه.. إحنا بيعاملونا هنا معاملة الفلاحين فى حفر قناة السويس؟

علت ضحكاتنا، ونحن نتابع كلمات دكتور هانى الساخرة. هو فقط يداعبنا، فقد تعود على المشـــاركة فى هذه القوافل منذ شبابه. لن تفت فيه هذه الظروف التى أقاسيها للمرة الأولى. ظل يحكى لنا مغامراته فى مجاهل أفريقيا؛ عندما زار النيجر والكاميرون فى التســـعينات، وقوافل دارفـــور والصومال فى مطلع القرن الحـــادي والعشرين، وكيف كانوا يقاســـون ظروفًا أصعب من ذلك بكثير. صمت لحظات، ثم بدا على وجهه الجدية وهو يقول:

– إنتـــوا عارفين يا ولاد.. زمان لما كنا بنعمل قافلة كنا بنشـــيلها من الألف للياء. مكانـــش فيه حد من رجال الأعمال ولا البنوك ولا حتى دول تانية تيجى تصرف عـــلى القافلة، لإن كان عندنـــا خير.. الثروة

الوحيدة يمكن اللى لســه موجوده فى بلدنا هى إنتوا – الشباب – دى الثــروة اللى مخليانا لحد دلوقتى واقفين عــلى رجلينا. أنا بقالى أكتر من عشرين ســنة بطلع قوافل.. إقبال الشباب على المشاركة، وتفانيهم فى إنهم يقدموا حاجه لناس ميعرفهومش، لغرض إنســانى بس، وبدون مقابل.. حاجه تفرح.. أعداءنا عارفين كده وعاوزين يقضوا على الثروة دى بالمخدرات وبنشر الجهل والمرض ودى المعركة الجاية.

ختــم حديثه معنــا ببعض النصائــح التى لا تخلو مــن خفة الظل والفكاهــة روحة الحلوة كانت تطغو على هذه الجلســة. تفرقنا بعدها حيث توضأت وصليت، ثم غصت فى نوم عميق. هكذا مر اليوم الثانى بتشاد، فى جو يبعدنى تمامًا عن المشاكل التى تركتها بمصر. كل شىء بدا خارج نطاق التفكير. شىء واحد ظل عالقًا فى ذهنى، ولم يغادر مخيلتى طوال اليومين. شىء ظننته يتوه وسط ازدحام الأفكار، إلا أنه أزاح كل الأفكار الأخرى، وظل وحده يطاردنى.

(13)

داخل غرفتى فى الفندق، وبعد عناء يوم طويل من العمل الشـــاق، حيث أقوم بالكشف والملاحظة لعدد كبير جدًا من الحالات، وبشكل متواصل. ها أنا ذا أحاول أن أغالب النوم لدقائق أغير فيها ملابســـى فيغلبنى. لم أشـــعر بنفســـى، نمت كما أنا بملابس الخروج متكئًا على جانبى، حتى نظارتى لم أرفعها عن عينى.

لا أدرى كـــم مر من الوقت قبل أن أســـتيقظ على صوت ضحكات صاخبة تمـــلأ الغرفة، ويبدو أن الحديث كان يطالنى، حيث ســـمعت اســـمى يتردد بين همهمات الحاضرين. بدأت أفتح عينى رويدًا رويدًا، لتظهر أمامى أشباحًا للحاضرين. أعدلت من وضع نظارتى على أنفى. لم يكونا رفيقي الغرفة فحســـب، بل هم بصبحـــة آخرين من الزملاء، ويبدو أن الســـهرة الليلة ستكون فى الغرفة. احتجت مزيدًا من الوقت كى أقاوم بقايا نعاس بعيني، ثم نظرت فى ساعتى. لم يمر الوقت الكثير. ســـاعتان من النوم لا تكفيان بالتأكيد، ولكن لا بـــأس، علىَّ أن أغير ملابســـى على الأقل. قمت من مكانى، ألقيت التحية على الحاضرين، فرد الدكتور هانى قائلًا:

– يابنى انت جاى هنا عشان تنام؟

أعلم أنه يداعبنى، لم يقصد بالتأكيد ما يقول، قلت بابتســـامة محاولًا

استدعاء روح الدعابة ذاتها:

– واضح إن شـــغل المعمل والرمد مريح وهادى كده.. مش طحن زى عندنا.

انضممت إلى المجموعة، وبدأنا نتناقش حول مشـــقة عمل كل منا. يقســـم دكتور معتز أنه يقوم بإجراء عشرات العمليات يوميًا متواصلا دون راحة. اليوم أكمل حالته المائة فى أقل من أســـبوع، ويؤكد دكتور هانى والأســـتاذ أنيس فنى التحاليل أنهم يســـتقبلون مئات الحالات يوميًا، فى سيل لا ينقطع طوال اليوم يشاركهم الرأى الزملاء الآخرون من مختلف التخصصات المتواجدين بصحبتنا، فالمرضى فى تشاد تشعر وكأنهم عطشى لخدمة طبية حقيقية. جعلنا نتحدث، ونتبادل المواقف الطريفة التى نواجهها فى هذه الرحلة. ما يقرب من الساعة من الحديث الممتع قبل أن ينسحب الحاضرون واحدًا تلو الآخر، حتى بقينا وحدنا أنا ودكتور هانى فى الغرفة. حتى دكتور معتز ذهب بصحبة أحد الزملاء إلى إستراحة الفندق.

دخلت حمام الغرفة لأغير ملابسى، ثم قلت لدكتور هانى من خلف الباب:

– إنت عارف يا دكتور هانى.

– خير يا بتاع الفارما.

– أنا لو مطلعتش من الســـفرية دى كلها غير بإنى عرفت حضرتك فـــده يكفينى.. حضرتك من الشـــخصيات الرائعة اللى تدخل القلب

علطول.. أنا سعيد جدًا إن عندنا أساتذه فى الكلية بالروح دى..

أتممـــت كلامى، وأنا أخرج من الحمام. حيث وجدت الدكتور هانى يغط فى نوم لا أعرف كيف أصبح عميقًا بهذه السرعة. اســتلقيت على سريرى، ووضعت رأسى على وسادتى، وجعلت أستجدى النوم فيأبى أن يعود لمقلتي، وجدت نفسى منفردًا أمام أفكارى.

****

لا أعرف لما زارنى طيفها هذه الليلة. هى بالأســاس لم تغب عن بالى أبــدًا، إلا أن الأرق الذى أصابنى بعــد منتصف هذه الليلة جعلنى فى مواجهــة مع ذكرياتى. رغم محاولاتى المتكررة للنســيان، فقلبى يأبى ذلــك. الغريب أن عقلى أيضًــا يتفق على ذات الأمر. مــن إذًا يحاول نســيانها؟ الواقع يحتم ذلك. ســحقًا لهذا الواقع الذى يسرق منا أغلى أمنياتنا ليودعها فى مكان مجهول يدعى الذكريات.

لم أحكِ لكم ما حدث بيننا فى آخر لقاء.

التقيتها بعد إمتحان آخر مادة، وقبل سفرى بأيام قليلة، وبعد إمتحان الزمالة بيوم واحــد. كانت كأجمل ما يكون. لم يؤثــر الحزن يوما على رونقها وجمال طلتها. كنت أراها كل مرة أجمل وأبهى، مشرقة كشمس تضيء المكان، ساحرة كقمر يمحو الظلام. حين رأيتها تلك المرة خفق قلبى بشدة، لدرجة جعلتنى أشعر أن من حولى يسمعون دقاته. اقتربت منها، وبادرتها بالقول بتوتر شديد:

– دينا إزيك ؟ عملتى أيه فى الامتحان؟ فى الامتحانات كلها؟

– دكتور أيمن.. الحمد لله والله.. عدت على خير.

– طب والفارما؟

– كان صعب شويه.. بس الحمد لله برضو حليت كويس.

– كنت عاوز أتكلم معاكى فى موضوع كده.

قلتها ملقيًا نظرى على زميلاتها اللاتى كانوا برفقتها، ففهموا ما أرنو إليه، فاستأذنوا بالانصراف، مما جعلها تستشعر بعض الحرج، إلا أننى بادرتها بالقول قبل أن تنتشر حمرة الخجل على وجهها، لتحجب ابتسامة رسمتها شفتاها عندما رأتنى:

– تحبى نقعد فى مكان أحسن؟

– اللى حضرتك تشوفه..

قالتها بذات الوجه الخجول، وابتسامة لم تفارق ثغرها، لتحفر بين طياته تلك الغمازات الساحرة التى أعشقها، ثم تبعتنى إلى كافتيريا الكلية حيث اتخذنا طاولة بعيدة نسبيًا عن صخب المكان. حاولت أن تخفف من حدة الخجل بكلمات بادرتنى بها حين قالت:

– أنا مش عارفة أشكر حضرتك إزاى على مساعدتك لى، وشرحك اللى فرق معايا كتير.. ربنا يجازى حضرتك خير يا رب..

ارتسمت ابتسامة على وجهى يصعب مواراتها. عادة أبتهج عندما أسمع ثناء على شرحى، فما بالك عندما تكون هى صاحبة الثناء. أجبت:

– كلامك ده يسعدنى جدًا. .إنتى أصلًا مصدر بهجة، ودايمًا كلماتك بتشرح قلبى..

طأطأت رأسها من الخجل، والحياء يزين وجهها. تقول أحلام مستغامانى «الحياء نوع من الأناقة المفقودة.. شىء من البهاء الغامض الذى ما عاد يرى على وجوه الإناث» . فلتأت «أحلام»لترى أميرتى بذاك البهاء. تابعت القول بارتباك شديد، أحاول مداراته بابتسامة بلهاء:

– فيه حاجة أنا عاوز أقولك عليها من زمان.. بس دايمًا مكانتش بتيجى الفرصة، أو الظروف مكانتش بتسمح..

لم أبال بساقى التى جعلت ترتعش، وقلبى الذى جعلت دقاته تتسارع، وأعراض فيضان الأدرينالين التى بدأت تظهر على جسدى كله. أكملت محاولًا إظهار شيئًا من الثبات:

– أنا مش عارف أبدأ كلامى إزاى.. يمكن اللى إنتى متعرفهوش إنى أول مرة شوفتك كان فى التيرم الأول.. وإنتى فى سنة ثانية، وكنتى مع صاحباتك، وطالعين تصوروا ورق من قدام الكلية.. لما شوفتك إتشديتلك جدًا، لدرجة إنى غيرت طريقى، ومشيت فى طريقكم، لحد ما وقفتوا عند المكتبة.. عملت نفسى بشترى حاجة، وفضلت متابعك وإبتسامتك مالية المكان لحد ما مشيتى.. ساعتها كان نفسى أكلمك.. بس معرفتش وبعدها اختفيتى.

سكتت برهة. أحاول أن أستجمع كلماتى، وأراقب تفاعلها معى، ثم تابعت:

– متتخيليش سعادتى بعد سنة كاملة لما شوفتك لأول مرة داخلة «سكشن 3» ، وأد أيه إنشرح قلبى ساعتها، وكان بيتنطط من الفرحة. على مدار تيرم كامل بتابعك كل مرة.. وألاقى فيكى كل اللى بحلم بيه.. كنت كل يوم بتعلق بيكى أكثر.. الإحساس اللى أنا بحسه لم بشوفك حاجه كده متتوصفش.. أنا مش هقدر أستنى أكثر من كده ولازم أعترفلك إنى بحبك.. شايف إن إنتى الحد اللى أنا عشت أدور عليه وعاوز أكمل معاه بقيت عمرى. أتمنى تسمحى لى أحدد معاد مع باباكى علشان أتقدملك.

لمحتها تغرق فى بحر من الخجل، ويبدو أنها لم تكن مستعدة للقاء كهذا. جعلت تحرك يديها فى حركة تلقائية تظهر توتر تحاول هى أن تخفيه، وابتسامة على شفتيها تحاول هى أن تحبسها، وعيناها لم تفارق الطاولة. ظلت هكذا لدقائق وأنا أنظر إليها أنتظر منها ردًا يريح قلبى. استجمعت كلماتها ثم ردت دون أن ترفع عيناها:

– دكتور أيمن.. حضرتك من أحسن الشخصيات اللى قابلتها. بس..

سكتت برهة، ثم أردف قائلة:

– أنا ظروفى الأيام دى صعبة جدًا.. مش هقدر أخد قرار زى ده.

حاولت أن أتماسك بعد هذه الكلمات، ثم قلت لها:

– أنا هكون جنبك.. هساعدك.. وهنتخطى مع بعض كل الظروف.

– حضرتك، ظروفى دى أقوى من إنى أتخطاها.. أنا هســـافر أيرلندا مع أخويا ومش عارفه هرجع ولا لأ.

– هستناكى.. إدينى كلمة بس.. وأنا هستناكى لو طول عمرى.

– للأســـف.. مش هقـــدر أوعدك بحاجه فى ظـــروفى دى.. حاول تنسانى يا دكتور أيمن، وكمل حياتك.. أنا مستقبلى لسه مش عارفه له ملامح.. متربطش نفسك بيا.. ربنا يوفقك ويكتب لك الخير.

قالت تلك الكلـــمات ثم لمحت بعض عبرات تهـــرب من مقلتيها. اســـتأذنت وانصرفت ولملمت بقايا أمل كنت أنشـــده، وتركت لقلبى جرحا لا أعرف هل تداويه الأيام أم يبقى رفيقى.

(14)

كانت الأيام الأخيرة فى تشاد تنطوى سريعًا بسبب الإنشغال طوال اليوم بأعمال القافلة واللقاء فى المساء مع الصحبة الطيبة. كنا نتجمع كل ليلة نتبادل الخبرات ونحكى نوادر يومنا، وها أنا ذا عائد من جديد على متن طائرة الخطوط الإثيوبية. مشـــاعر مختلفة تنتابى وأنا أودع أرض تشاد الطيبة وأهلها البســـطاء. تعلمت كثيرًا فى هذه الرحلة ليس على المستوى العلمى فحسب، بل أيضًا على المستوى الاجتماعى والفكرى والثقافى. تجربة جديدة أحمد الله أن وفقنى فيها.

علينا أن نبحر مجددًا فى سماء أفريقيا ولكن هذه المرة من مطار أنجمينا إلى مطار أديس أبابا ثم إلى مطار القاهرة. الرحلة هذه المرة مختلفة، ففيها حنين للعودة مـــن جديد إلى أرض الوطن. فيها حنـــين لرؤية والدى وأختى وأصدقائى. فيهـــا حنين للعودة إلى عملى وأبحاثى. فيها حنين لها، أعلم جيدا أنى قد لا أراها مرة أخرى، ولكنى لا أســـتطيع أن أمنع قلبى من الاشتياق إليها.

عـــلى عكس طريق الذهـــاب غلبنى النوم أكثر مـــن مرة على طريق العودة، لتنقضى الساعات سريعًا. أما الدكتور معتز فكان مهتما طوال طريق العوده بكتابة أحد الأبحاث التى أجراها مع زملاءئه فى تشاد من خلال ملاحظتهم لبعض الحالات النادرة هناك، لذا كان مشغولًا عنى طيلة الطريق تقريبًا.

قبل نصف ساعة من الوصول إلى مطار القاهرة أعلن كابتن الطائرة عن بداية عملية الهبوط وأكد على جميع الـركاب ربط أحزمة الأمان. توجهت إلى دكتور معتز، الذى كان قد أنهى لتوه ما كان يشـغله، وبدأ فى طى أوراقه:

– الناس اللى مبتضيعش وقت دى.

– لما أرجع مصر هلاقى حاجات كتير مستنيانى، ممكن تأخرنى عن البحث عشان كده أنا بحاول أخلص اللى أقدر عليه.

– أنا عاجبنى أوى إن حضرتك بتعرف تستغل وقتك كويس.

– هـو الموضوع بس محتـاج إنك تعرف تِفْصل. طـول ما دماغك مشـغولة بألف حاجـة فى نفس الوقـت عمرك ما هتعـرف تركز.. وهتلاقى الوقت بيتسرق منك.. إنما لو تعرف تِفْصل وتركز وتدى كل حاجة حقها، مش هتلاقى الوقت بيضيع أبدًا.

– أنا فعلا عندى مشكلة إنى مش بعرف أفْصِل.. بلاقى كل المشاكل والأفكار بتزاحم بعض.

ظل ينصحنى عن أهمية التركيز خصوصًا فى العمل البحثى الذى لا يحتمل أي أخطاء، وأيضا فى علاج المرضى الذين يأتمنوننا على أرواحهم وحياتهم. وتطرقنـا فى الحديث عن أهمية البحـث العلمى ودوره فى الارتقاء بالوطن، وعن كيفية النشر فى المجلات العلمية العالمية. دكتور معتز يمتلك بنك معلومات بالإضافة إلى موهبة عظيمة فى كيفية إيصال

المعلومة وتبسيطها لذا فإن الحديث معه دائما ما يكون مفيدا وممتعا.

كانت الطائرة تقترب، وبدأت معالم القاهرة تتضح شيئًا فشيئًا، حينها شعرت بطمأنينة العودة إلى الوطن. «فى الوطن راحة القلوب لو مبنى طوب أو مبنى قش» هكذا يقول صلاح جاهين. وهى الحقيقة بعينها. ظلت عيناي معلقة بأرض الوطن التى شعرت بها تقترب منا وكأنها تحتضننا. عندما لامست الطائرة أرض المطار أحدثت رجة شديدة ارتجت معها أجسادنا، وشعرت معها بانقباضة فى قلبى لا أعرف مصدرها. ظلت الطائرة تتحرك داخل المطار إلى أن استقرت عند إحدى بوابات الوصول. بادرنى الدكتور معتز بالقول:

- إنت فى حد مستنيك فى المطار.

- لأ.

- طب هتروح إزاى؟

- هاخد سوبر جيت لإسكندرية.

-لأ .. إنت هتيجى معايا.

- مش عاوز أتعب حضرتك بس.

- تتعبنى أيه يابنى.. أنا السواق هيكون مستنينى وهكون لوحدى، فمش هخسر حاجه يعنى.

كانت الساعة قد قاربت من الثانية والنصف صباحا. بالتأكيد ستكون المواصلات صعبة فى هذا الوقت مما جعلنى أوافق على عرض دكتور

معتز. شكرته كثيرًا وما إن أنهينا إجراءات الوصول وتسلمنا الحقائب حتى أتجهنا إلى باب الخروج حيث كان السائق فى إنتظارنا.

انطلقت السيارة بنا إلى الطريق الصحراوى ومشاعر الشوق والحنين تملأنى، إلا أن انقباضة قلبى لم تغب عنى. لم أشأ أن أتصل بوالدى فى هذا الوقت فقد يكون نائما. حين هاتفته آخر مرة أبلغته أنى سأصل صباح اليوم التالى حتى لا يقلق إذا ما تأخرت الرحلة.

حين وصلت إلى الإسكندرية شكرت الدكتور معتز بشدة الذى أصر أن يصحبنى حتى مكان إقامتى. كانت الساعة قد قاربت على السابعة صباحًا. أمسكت بالهاتف واتصلت بوالدى لأطمئن عليه وأطمئنه على حالى، فوجدت الخط معطلا. يبدو أن شركة الاتصالات قد حجبت عنى الخدمة لتأخرى فى سداد الفاتورة السابقة. رغم الإرهاق الشديد الذى ينتابنى، إلا أننى خرجت سريعا إلى أقرب مركز خدمة حيث قمت بسداد الفاتورة، ولكن الموظف أبلغنى بأن الخط سيعود للعمل خلال ساعة.

عدت إلى شقتى، استلقيت على سريرى. أحاول أن أمنع عن عينى نوم يطاردها، فى انتظار عودة الخط للعمل، إلا أن النوم غلبنى لأفيق فى الثالثة عصرًا. أمسكت الهاتف بسرعه فلم أجد أى محاولة للاتصال من والدى، الأمر الذى دعانى لقلق شديد. حاولت الاتصال به فلم يرد، فازداد قلقى. اتصلت بأختى التى أجابتنى بصوت أقرب للبكاء، لتخبرنى بأن أبى فى المستشفى وقد أجريت له عملية فى القلب فى

الصباح، وتم نقله بعدها إلى العناية المركزة، ولم يفق من أثر المخدر بعد.

****

حين وصلت إلى المستشفى وجدت أختى وبعض المقربين فى الانتظار أمام غرفة العناية المركزة. صافحتهم بثبات، واحتضنت أختى وجلعت أربت على كتفها، لأخفف عنها وأشعرها بالأمان. التقيت الطبيب المسئول عن حالة والدى، والذى أخبرنى بأنه أصيب بأزمة حادة فى القلب، بسبب ضيق فى الشريان التاجى، مما استدعى تدخلا سريعا لعمل توسيع ووضع دعامة للشريان، وأنه سيظل فى العناية لحين استقرار حالته. طلبت منه أن أدخل لأطمئن عليه، فوافق بعد أن أكد على أن الزيارة ممنوعه ولكن هذا الأمر لى كونى زميلاً.

اطمأننت على أبى، ثم خرجت من العناية محاولًا التظاهر بالثبات، مخفيًا دموعا كانت قد هربت من عينى رغمًا عنى. احتضنت أختى من جديد وجعلت أطمئنها، ثم قلت:

– ليه محدش قالى إن بابا كان تعبان وأنا مسافر.

– بابا أصلا كان بيتحامل على نفسه كتير الأيام اللى فاتت.. وكل شويه يقول أنا كويس ولما يرجع أيمن هبقى أخليه يكشف عليَّ.. وكان بيأكد علينا محدش يقولك حاجه لأنك فى غربة.. لحد النهاردة الصبح بعد ما صلى الفجر وقعد يدعيلك تيجى بالسلامة.. سمعت صوت خبطة جامدة فى أوضته دخلت عليه لقيته وقع فى الأرض مغمى عليه.

– ومين اللى جابه المستشفى؟

– أنا كلمت عمى محمود اللى جاب دكتور من المستوصف اللى جنبنا وجه.. ولما الدكتور كشف عليه قال لازم إسعاف مجهزة ويتنقل علطول للمستشفى.

– طب مكلمتينيش الصبح ليه؟

– مكنتش أعرف أنك وصلت وانشـــغلت معاه فى المستشـــفى، ولما الدكاترة قالوا عملية أنا مبقتش شايفة قدامى. أنا خايفة أوى على بابا يا أيمن.. قولى أنه هيخف ويبقى كويس وهيرجع معايا البيت.

قالتها ثم انهارت فى بكاء شـــديد. كانت أختى صاحبة السبعة عشر عاما قد فجعت منذ سنوات بوفاة أمها بأزمة قلبية أيضًا. ثم هى اليوم تخشـــى ذات الأمر على أبيها الذى صار لهـــا الأب والأم والأخ أيضا بسبب سفرى وانشغالى عنهما. أعلم جيدًا تقصيرى الشديد معها ومع أبى إلا أنهم لا يغيبون أبدًا عن بالى. أحاول دائما أن أعوضهما عن غيابى فى أيام الأجازات التى أقضيها معهما. اليوم وهم فى أشد الحاجة إلى أنه لابد أن أبقى بجوارهم.

طلبت مـــن أختى العودة إلى البيت حيـــث لا فائدة من وجودها فى المستشفى، وأن أبى لن يفيق قبل صباح اليوم التالى ولن يسمح بالزيارة فى الوقت الحالى.

عادت هى إلى البيت فى صحبة أحد الأقـــارب، بينما انتظرت أنا إلى

جواره. أسأل عنه بين الحين والآخر، وأجريت عدة اتصالات ببعض أصدقائى فى تخصص القلب والعناية المركزة كى أطمئن ما إذا كان هناك شىء آخر يجب عمله.

فى صباح اليوم التالى أخبرنى الطبيب المعالج أن والدى قد أفاق وحالته أخذة فى التحسن وأنه نادى باسمى أكثر من مرة. طلبت منه أن أدخل لأطمئن عليه، فوافق بعدما أكد على ألا أُثقل عليه.

عندما رأيت أبى على سرير العناية، وكان مغمض عينيه. فرت دمعة من عينى. قبلت رأسه ويديه قبل أن يفيق وينادى على فى ثقل شديد:

– أيمن حبيبى.. حمد لله على سلامتك.

حاولت التماسك وحبس دموعى ثم قلت:

– حمد لله على سلامتك إنت يا حج.. ما شاء الله إنت بقيت زى الفل.

– أنا زى الفل طول ما إنت بخير.. أنا كده خفيت خلاص عشان شفتك.

علت ابتسامة وجه أبى تبعتها ابتسامة على وجهى. تكلمنا لدقائق ثم تركته ليرتاح بعد أن قبلت رأسه ويديه من جديد.

****

مر يومين وأنا إلى جوار أبى فى المستشفى. كانت حالته فى تحسن مستمر فبعد يومين فى العناية خرج إلى غرفة عادية. طمأننا الأطباء بأنه

إذا ما استمر فى تحسنه، فيمكنه العوده إلى المنزل بعد أيام قليلة. كنت لا أدع المستشفى إلا لساعات قليلة أطمئن فيها على أختى وأعود سريعًا، أطمئن عليه وأتابع حالته وأستقبل زواره. جلسنا ليلة أمس قرابة الخمس ساعات يحكى لى من حكايته وذكرياته، تلك الحكايات المشوقة التى دائما ما يمتعنى بها وتعلو ضحكاتنا معها حتى أذن الفجر. أصر والدى أن أصلى به إمامًا، وصلى هو على سريره خلفى. ثم تركته حين راح فى سبات عميق.

فى الصباح وجدت على هاتفى محاولات اتصال عديدة لمدام فتحية السكرتيرة. اتصلت بها سريعا فأجابتنى:

– إزيك يا دكتور أيمن حمد لله على سلامتك. مجيتش القسم ليه لحد دلوقتى؟ المفروض تيجى عشان تقطع أجازتك.

– معلش ظروف عندى كده وإن شاء الله هاجى بكره أو بعد بكره بالكتير.

– لأ بعد بكره أيه دا دكتور مدحت سأل عليك النهاردة وقالى أكلمك تيجى تقابله بكرة ضرورى الساعة 10 الصبح.

– خير يا مدام فتحية؟ متعرفيش عاوزنى ليه؟!

– لا والله يا دكتور أيمن هو مقالش أى حاجة.

حقا كان يجب على أن أعود لأقطع أجازتى، ولكن هل هذا هو السبب الذى جعل دكتور مدحت يسأل علي؟ لماذا إذًا يود مقابلتى؟

لابد أن جديدًا قد حدث بالقسم. كان على أن أسال وأطمئن. كان على أيضًا أن أبلغ أحد الزملاء بأن ينهـــى إجازتى ويبلغ إعتذارى. ولكن ظروف أبى وحالته الصحية أنستنى الدنيا وما فيها.

اتصلت سريعا بإســـلام صديقى كى أعرف منه إذا كان يعرف عن الأمر شيئا. فرد علي:

– يااااه.. حمد لله على السلامه يا ملك أفريقيا.

– إزيك يا إسلام.. أخبارك إيه.

– أنا زى الفل.. أنت عامل إيه؟ وأخبار تشـــاد؟ أوعى يا واد تكون أتجوزت من هناك. السود حليو فى عنيك ولا حاجه.

– زى ما أنت يا إسلام مش هتتغير.

– يا عم مالك كده قافش.. بهزر معاك.

– طيب قولى.. متعرفش دكتور مدحت عاوزنى ف إيه؟

– هو ســـأل عليك النهارده؟ بـــس مقالش عـــاوزك ليه؟ تلاقيك وحشته. أنت أصلا مرضى عنك اليومين دول. وبعدين الباشا مزاجه رايق وعال العال.

– خير.. فى جديد فى القسم ولا إيه؟

– الباشـــا يا عم نشر البحث بتاع الرســـالة بتاعتك بإسمه فى المجلة الأوروبية للأدوية. مش بس كده.. دا أخد أحسن بحث فى المجلة كمان.

لم أستوعب ما قال وكأن صاعقة من السماء قد أصابتنى. طلبت منه أن يعيد على كلامه.

– أنت قلت إيه؟ مين نشر بحث إيه؟ وباسم مين؟

– زى ما سمعت كده. دكتور مدحت حالته النفسية اليومين دول فى السما، وبيعاملنا كلنا أحسن معاملة اليومين اللى فاتوا دول.

– أيوه قلت بحث أيه بقى اللى نشره؟

– يا عم البحث بتاع الرسالة بتاعتك.. هبعت لك لينك البحث من المجلة دلوقتى.

لم أصدق ولا أستوعب ما قال فقط تمتمت بكلمات «يا ريت تبعته» ثم كلمات السلام قبل أن أغلق الهاتف وأتوه فى ما قاله إسلام.

الفصل الخامس

المواجهة

ربما تحتم الظروف عليك المواجهة فلتقف حينها دون حقك..
ولتعلم أن الحياة عقيدة وكفاح

(15)

كيــف يمكننى أن أصف لحظاتــى التالية وأنا لم أكن أســتوعب ما يحدث. لم أكن أعلم كيف ســيمكنه مواجهتــى وبأى منطق يمكن أن يبرر ما حدث أتعجب لهــؤلاء الذين لديهم القدرة أن يواجهوا الناس بالباطل، بل ويحاولون أن يدحضوا به حقًا بَيْنْ.

عندما حضرت إلى الكلية فى هذا اليوم ســاقتنى قدماى إلى القســم صدقنــى لا أعرف من ألقى على الســلام فى طريقــى. حين وصلت وجدت لافتة على لوحــة الإعلانات مكتــوب عليها:«يتقدم مجلس القسم بخالص التهنئة للأستاذ الدكتور: مدحت يونس رئيس القسم على إنجازه البحثى.. وحصول بحث ســيادته عــلى أفضل بحث فى المجلة الأوروبيه للأدوية والعلاج»

لم أتمالك نفسى تساقطت عبراتى رغمًا عنى. انسحبت بهدوء خلال طرقات القســم الخاوية، حتى وصلت غرفة المعيدين جلست وحدى أحاول أن أجد تفسيرًا لما يحدث؛ سيعتذر إلىَّ بالتأكيد، سيخبرنى أن ما حدث هو خطأ غير مقصود وأن اسمى سقط سهوًا من الورقة البحثية المنشــورة. ســيتضاءل أمامى وأمام هذا الجرم الذى هو بالتأكيد نادم عليه، ثم أعود لأتذكر شخصية دكتور مدحت وغلظته، ولكن أنىَّ له أن يواجهنى وهو يدرك الحقيقة العارية. جعلت رأسى تدور فى انتظار

الواقع الذى قد يفاجئنى ويكون خارج إطار التوقعات.

بعد ما يقرب من ســـاعة مرت «أم السعد» عاملة القسم، ألقت علىَّ التحية، فسألتها إذا كان دكتور مدحت قد وصل القسم أم لا، أجابتنى أنه جاء لخمس دقائق، حصل خلالها على بعض الأوراق من القســـم ثم إنصرف، ولا تعرف إن كان ســـيعود أم لا. أخبرتها أنه سيعود حتمًا لأنـــه أعطانى موعدًا فى العاشرة صباحًا، ثم ها هى ســـاعة إضافية تمر حتى أذان الظهر، بعد الصلاة قررت أن أتصل به. طلبته فلم يرد ثم مرة أخرى فيرفض الاتصال، اتصلت حينها بمدام فتحية السكرتيرة، التى أخبرتنى أنها فى أجازة اليوم ولا تعلم من الأمر شيئًا، ثم رسالة قصيرة وصلتنى من الدكتور مدحت:

«أنا مشغول النهارده..بكره فى مكتبى 9 ص»

يا إلهى، لقد تحملت هذه السويعات بالكاد، فكيف أتحمل مزيدًا من الانتظار. عدت إلى شقتى بذات الوجه المخذول وعقلى يأبى أن يتوقف عن التفكير.

بعـــد العصر توجهت إلى العيادة أديت العمل فى فتور، ثم طلبت من دكتور نادر أن أتحدث إليـــه بعض الوقت قبل أن ينصرف من العيادة، أخبرنى أنه مشـــغول بعض الشىء فلديه ارتباط بعد العمل، ولكن لا بأس فى بضع دقائق بعد وقت العيادة. عندما التقيته بادرنى بالقول:

– مالك يا أيمن مش فى حالتك النهارده؟

– والله يا دكتور نادر ده اللى كنت عاوز أكلم حضرتك فيه.

قال بلهفة الأب:

– خير يابنى؟

تجاوز حديثنا الساعة ويبدو أنه نسى ارتباطه وانشغل بمشكلتى. كان مستاءً جدًا مما حدث، لكنه نصحنى أن أصبر ولا أتسرع فى الحكم وأن أتحدث إلى دكتور مدحت أولًا، ومن ثم أستطيع أن أتخذ قرارًا فيما علىَّ فعله. طلب منى أيضًا ألا أقنط أو أيأس وأن أثق تمامًا أن تعبى وعنائى لن يضيعه الله أبدًا. أكد كذلك أنه يرجح أن خطأً ما قد حدث، فمن الصعب أن يثبت الدكتور مدحت انفراده فى أداء البحث، ثم ختم حديثه معى بأن أبلغه غدًا بما دار بينى وبين دكتور مدحت ثم استأذن وإنصرف من العيادة وانصرفت بعده بدقائق.

لم أستطع أن أنام فى هذه الليلة. على غير عادتى خرجت فى وقت متأخر حيث كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة والنصف. لم أكن أعرف وجهتى ولا ما أنتوى فعله. توجهت فى طريقى إلى كورنيش البحر؛ ملجأ الحيارى ومنتدى الساهرين وملاذ العاشقين، إلا أننى سمعت من ينادى باسمى، أدرت وجهى فوجدت أبو محمود وأستاذ جميل جيرانى فى البناية التى أقطنها يجلسون سويًا على المقهى المجاور، صاح أبو محمود:

– ماتيجى تقعد معانا يا دكتور أيمن.. ولا إحنا مش قد المقام؟

عادة يداعبنى بهذه الكلمات فأرد مداعبًا «يا باشـــا إحنا اللى مش قد المقـــام» . لم أعتد ارتياد المقاهى، ليس تحقـــيرًا منها فكثير من زملاءئى يجـــدون فيها ملاذهم ويعقدون لقاءاتهم بها، بـــل ومنهم من يذاكر فى المقهى ولكن أشـــعر أنها لا تناسبنى فهى ليست مجتمعى. إلا أننى هذه المرة انضممت إليهما وأنا أقول:

– أهو يا سيدى أدينى هقعد معاكوا..

مزيج من العجب والســـعاده انتابت أبو محمود ورفيقه وإذ به يصفق فيأتى صبى المقهى ليطلب منه نرجيلة تحية لىً فضحكت برغم ما بى من هموم وصحت:

– مش للدرجادى يا حاج طب قول كركديه.

ثم قال أبو محمود :

– أمال أيه الغيبة دى كلها يا دكتور أيمن متعودناش على كده.

– كنت فى سفرية كده لتشاد تبع الشغل..

تجهم وجه أبو محمود الذى قال:

– دى فى الصعيد دى ولا فين؟؟

فرد عم جميل:

– صعيد أيه يا حاج تشـــاد دى بلد تانيـــة زى الهند والصين كده من النمور الآسيوية.

يتحدث عم جميل بصفته الراجل المثقف الذى يعرف «بلاد بره» فيثنى أبو محمود على معرفته وثقافته الواسعة. لن أرد بالتأكيد فليس هذا مقام علم ومعرفة. جلسنا قرابة الساعة من الانفصال التام عن الواقع، أجزم أن هذا ما كنت أحتاجه؛ شيئا من الضحك والدعابة بين لحظات اليأس والكآبة، بعدها استأذنت للقيام ليصيح أبو محمود:

– وعلى الطلاق من مراتى لانت قاعد شوية.. دا أنا فرحتى بقعدتك معانا دى متتوصفش.

فيرد عم جميل:

– مراتك أنهى واحده فيهم بقى؟

فقال أبو محمود:

– والله الواحد نفسه يخلص منهم كلهم بلا جواز بلا أرف ده الواحد زهق من صنف الحريم.. ألا يا دكتور أيمن، أيه أخبار الحريم فى تشاد؟

فقلت محاولًا مجاراته:

– زى الفل.. كان فيه واحدة هناك كانت مصرة تتجوز دكتور زميلنا وبتقول إنها مستعدة تديله مهر 10 مليون وعربيه «كامرى»

انتفض أبو محمود من مكانه وصاح:

– طب ما تشوفهالى دى.. وليك الحلاوة.

****

فى مكتب رئيس القســم جلســت أتابع دكتور مدحت وهو يتصنع الانشغال ببعض المهام على الحاسب وينفث دخان سيجارته أكاد أجزم أنه يتعمد ذلك. يتعمد فى كل مرة أن يجعلنى أنتظر وإن لم يكن مشغولًا كنوع مــن الازدراء لا أدرى إن كان يفعل ذلك مع غيرى أم لا لكننى أبغض هذا التصرف. بعد دقائق قاتلة نظر إلى بابتسامة سمجة ثم قال:

– حمد الله على السلامة يا أيمن

أهو حقًا أتى بى اليوم ليطمأن على سلامتى؟ أجبت فى فتور:

– الله يسلمك يا دكتور

– أنا بهنيك يا أيمن.. القافلة مسمعة جامد فى الجامعة ومجلس القسم خلاص حدد الممتحــن الخارجى بتاعك.. يعنى خلاص يا ســيدى المناقشة فى خلال شهر..

– شكرًا يا دكتور

– عاوز أهنيــك كمان على البحث بتاعنا.. أكيد ســمعت إنه اتنشر بشكرك كمان على المجهود اللى قمت بيه.

بهذه البســاطة، بهنيك على البحث «بتاعنا» ، يــا إلهى كأنه يطعننى بسكين، هل أســتكين؟ هل تتم عملية السرقة بهذه السهوله وعلى ألا أحرك ســاكنًا؟ لا وألف لا، لن أفرط فى حقى، أجبت محاولًا التماسك وعدم رفع صوتى:

– حضرتك تقصد أيه بـ«بتاعنا» ..

– أقصد البحث !

– أيوه مين إحنا بقى؟

لم يدع لى الفرصة فقد فهم ما أقصد، حافظ هو الآخر على هدوئه. لم يرفع صوته بل قال بذات النبرة:

– بص يا أيمن إنت شـــاب مجتهد والمستقبل قدامك وأنا أتوقع لك مستقبلا رائعا بالمناسبة.. هتناقش وتترقى وتلاقى نفسك بتتقدم طول مانت بتسمع الكلام وبتنفذ المطلوب منك.. بس..

إحمر وجهى وانتفضت عروقى، لم أتحمـــل محاولة السرقة الناعمة لم أتوقع أن يتكلم بكل هذه الثقة. صحت دون أن أدرك تبعات ما أقول:

– حضرتك بتتكلـــم إزاى.. البحث ده بتاعى أنا.. مجهودى أنا.. أنا مش مستوعب أصلا إزاى إديت لنفسك الحق تنشره باسمك

قام من مكانه وصاح بأعلى صوته:

– إنت نسيت نفسك ولا إيه.. إنت إزاى تتكلم معايا بالطريقة دى.. إنت ولا حاجة.. الرسالة معروفة بتاعة المشرف والطالب مجرد أداة زيه زى الفار اللى بنجرب عليه بالظبط.

لم أســـكت هذه المره لقد كان بداخلى غضب عارم، وقفت أمامه ثم صحت بصوت عال:

– ولما هى تخص المشرف حضرتك بقى صفتك إيه.. اللى كان مشرف على إتوفى.. إسمك على الرســـالة مجرد بيانات بنكملها لكن مجهودى

مش هسمح لحضرتك تسرقه.. وعمرى ما هكون الفار اللى حضرتك تقصده.

إستشاط غضبًا وزادت ثورته حتى أنه ألقى فنجان قهوته على الأرض ثم جعل يصيح:

– لو فكرت تتحدانى يا أيمن.. أقسم بالله هنسفك.. مستقبلك هيقف عند النقطة دى

ثم ترك مكتبه وخرج ونادى على السكرتيرة ثم قال:

– اسمعى يا فتحية.. البنى آدم ده موقوف عن العمل.. وميدخلش القسم لحد ما يتعلم يتكلم إزاى مع اللى أكبر منه.

ثم إنصرف وترك القسم وجعلت مدام فتحية تقول:

– ليه بس كده يا دكتور أيمن.. كنت هاوده.. وإعمل له اللى هو عاوزه.. هو دكتور مدحت بيحب الكل يسمع كلامه.. ومش هتعرف تاخد معاه حق ولا باطل.

لم أرد فقط جلست فى مكانى مذهولًا لا أستطيع أن أتحرك وأنا أسمع صوت مدام فتحية ما زالت تحدثنى هى تقول على ما يبدو أن على الاعتذار حتى أنال الرضا. جعلت أجر قدماى وانصرفت فى هدوء. أتعجب عمن يبحث عن مجدٍ زائف بجهد مسروق!

حاولت إظهار شيء من الثبات قمت من مكانى وانصرفت دون أن أرد على أحد طويت طريقى إلى الشقة مترجلًا فى دقائق حين وصلت

اتصلت بأبى أطمئن على صحته لم أقــص عليه ما حدث. أعلم كيف يؤثر عليه خبر كهذا وهو ما زال يحاول الاستفاقة من وعكته الصحية. ســيكون على أن أنتظر لظهر غد بعد عودتى مــن الكلية قبل أن أعود لأطمئن عليه بنفســى حيث إن العيادة راحــة أيام الخميس والجمعة. حتى أننى اليوم لا أقوى على العمل بالعيادة لذا اتصلت بأحد الزملاءء كان يعمل مع دكتور نادر أيام سفرى طلبت منه أن يغطى غيابى اليوم.

اتصلت بعدها بدكتور نادر أعتذر عن عدم تواجدى اليوم بالعيادة. فهم أن شيئا ما قد دار بينى وبين دكتور مدحت اليوم طلب منى أن أرتاح الآن ثم أمر عليه آخر اليوم بعد العيادة. شكرته لاهتمامه واستلقيت على سريرى لم أكن أقوى على فعل شــىء سيل من الأفكار تحاصرنى تفت فى عضدى.

تذكــرت تفاصيل ما حدث ثم هربت عبرات من عينى. يقولون إن بكاء الرجل ضعف، أعترف أننى الآن أضعف من أى وقت مضى، أنا أضعف حتى من تلك الكلــمات الباهتة التى وقفت أتحدى بها دكتور مدحت. قمة الهوان ذاك الإحســاس بالظلم الذى لا تســتطيع رفعه. ومن لى أشكو إليه وأستجير إلا ربى.

****

جلست فى انتظار دكتور نادر الذى يبدو أنه سيتأخر اليوم فى العياده فما زال بالانتظار أكثر من حالة حين أخبرته السكرتيرة بوصولى طلب

دخولى بعد الحالــة التى يباشرها إلا أننى آثــرت الانتظار لحين انتهاء الحــالات حتى لا نتعجل فى الحديث، أجد فيه القشــة التى أتعلق بها حيث خبرته وموقعه كأستاذ بالكلية ستفيدنى بالتأكيد فى موقف كهذا.

حين أنهى حالاته دخلت إليه ورويت إليه ما حدث بكامل تفاصيله غريب الأمر أنه عاتبنى عتابًا شديدًا لإندفاعى وتحدى دكتور مدحت وأخبرنى أنه لم يكن على فعل ذلك. لم يكن يتبنى موقف دكتور مدحت بالتأكيد، بل كان يرفضه تمامًا وينكر عليه فعلته إلا أنه أخبرنى بالحقيقة المجردة؛ أنا أضعف بكثير من أن أتحدى أستاذًا فما بالك وهذا الأستاذ هو رئيس القســم ومشرفى فى الرسالة. فقلت باندفاع من واقع حماسة بداخلى:

– أنا أقوى منه بالحق.

فرد فى عجب:

– إنت فاكر نفسك فى المدينة الفاضلة.. فوق يابنى.. وبعدين يا أيمن صدقنى لو فضلت على تعنتك ده هتخسر كتير.

– يعنى حضرتك شــايف إن أنا أوافقه وعادى كده أقبل إنه يستولى على مجهودى.. حضرتك مش متخيل أنا تعبت فيه إزاى.

– ماهو فى المقابل كانت الدنيا هتمشــى وتناقش وكان هيسهل لك حاجات كتير.. لكــن كده إنت خسرت دكتــور مدحت وهتقف فى المناقشــة والترقية ومش بعيد يؤذيك فى مستقبلك.. والبحث ده مش

آخر الدنيا يعنى.

– يعنى حضرتك شايف إيه؟

– أنا شايف إن أفضل حاجه الأمور تتحل ودى.. يعنى ندخل وسيط بحيث إنك تعتذر لدكتور مدحت ونحاول معاه يردلك حقك الأدبى والأخلاقى على الأقل قدام القسم والأمور تمشى.. لازم يا أيمن شوية مطاطية كده علشان الريح متكسرناش ونقدر نتقدم.

ذهلت من كلام دكتور نادر، هكذا يرى أن الحق عليه أن يطأطئ رأسه لرياح الباطل! لم أتجادل معه كثيرًا لقد أدركت وجهة نظره ويبدو أن هذه حقيقة خبرته بالأمور شكرت له نصحه حقًا كنت أتمنى موقفًا أكثر إيجابية إلا أنه على ما يبدو لن يخسر زميلًا أو لن يدخل فى مواجهة ينتظر منها كثيرا من المشاكل من أجلى. علىَّ أن أفكر أنا أيضًا فى هذا الحل، وألا أستعلى على الواقع. حسابيًا فالخسائر أكثر بكثير إذا ما أصررت على موقفى وما يضرنى فى أنه يكتب ورقتى البحثية باسمه. أعلم أن الأمور تعقدت ولكن على أن أفكر جيدًا قبل أن تزداد الأمور تعقيدًا.

عندما وصلت الشارع الذى أسكن فيه لم أكن أبغى أن أعود إلى شقتى. ساقتنى قدمايا إلى ذاك المقهى الذى سهرت به بالأمس لم أجد أبو محمود وجدت عم جميل يجلس وحده يقلب صفحات الجرنال ويرشف من فنجانه فى مشهد كلاسيكى لرجل شرقى أصيل. ألقيت عليه التحية ثم اتخذت مقعدًا مجاورًا له ترك ما يشغله فى الحال ورحب بى بحرارة. طلبت كوبًا من عصير الليمون عله يلطف من حرقتى وسألته عن

أبو محمـــود فأجاب أنه ربما يكون قد تأخـــر فى العمل أو ربما يكون فى أحد ســـهراته سينضم إلينا حتما حال عودته. جعل يبادلنى الحديث فى الأمور السياسية والاقتصادية الجارية ويشرح نظرياته الفلسفية فى حل مشاكل العالم ثم تطرق إلى الحديث عن مشاكل الرياضة فى مصر وأهمية أن يعـــود الزمالك للبطولات. بدا عليه التعصب لنادى الزمالك وهو يحلل مبارياته الأخيرة ويستنكر أداء الحكام ثم ما لبث أن انضم الينا أبو محمود فصاح عم جميل:

– أهو شرف الأهلاوى بتاعنا.

لما لمحنـــى أبو محمود تهلل وجهه وترك كلمات عم جميل الذى يحاول استفزازه بها وقال فى سرور:

– والله منور القهوة يا دكتور أيمن..

أجبت بابتسامة:

– ده نورك يا أبو محمود.. أدينى بقيت باجى كتير أهو علشان متقولش مش قد المقام.

رد وهو يصفق لصبى القهوة:

– ده شرف لينا وللقهوة كلها والله يا دكتورنا..

ثم طلب نرجيلته وكوب من الشاى الثقيل.. ثم تابع قائلًا:

– ألا قوللى يا دكتور أيمن إنت ليك فى البروستاتا؟!

تعجبت من السؤال ثم أجبته:

– تقصد إيه.. مش فاهم

– أصل عندى الواد اللى شغال فى المحل بيقولوا طلع عنده تضخم فى البروستاتا.. والواد على وش جواز وقلقان على نفسه.

فهمت من لهجة أبو محمود أن المشكله لديه هو لكنه يحاول إلصاقها بصبى يعمل عنده، مع العلم أن هذه النوعية من الإصابات تصيب كبار السن... أجبته:

– والله أنا مفهمش فى الحاجات دى لازم دكتور مسالك

– أمال إنت تخصصك إيه؟

– أنا تخصصى أمراض صدرية وحساسية.. وشغال معيد فى قسم الأدوية فى الكلية.

فجأة انضم عم جميل للحديث الذى بدا أن شيئًا ما قد لفت انتباهه قائلًا:

– قسم الأدوية.. ده انتوا عندكوا دكتور فى القسم – بسم الله ما شاء الله – علامة!

تعجبت من كلام عم جميل وسألته:

– دكتور مين يا عم جميل؟

– دكتور اسمه مدحت.. بيقولوا اكتشف دوا جديد بيعالج الأمراض المستعصية.

تابعت بكثير من العجب والفضول:

– انت تعرفه يا عم جميل؟

فرد:

– ده انا لسه قارى تقرير عنه فى الجرنان بيقولوا معروض عليه ملايين من شركات أدوية كبيرة علشان يشتروا الدوا اللى اكتشفه.

وسط ذهولى بما أسمع تابع عم جميل:

– تعرفه ده يا دكتور أيمن؟

صمتت فى ذهول وبدا على وجهى علامات الأســى فلاحظ رفيقا المقهى فبادر أبو محمود بسؤالى:

– خير يا دكتور أيمن مالك؟ من إمبارح كده شكلك مش عاجبنى

أجبته فى محاولة لفض شيئاً من غبار الألم:

– إنت عارف البحث اللى إنت بتتكلم عنه ده؟؟

إنتبه عم جميل وقال:

– ماله؟

– البحث ده بتاعى أنا.. بقالى أكثر من ســنتين شــغال فيه.. دكتور مدحت بقى يا سيدى رئيس القســم.. وقرر كده مع نفسه من غير ما أعرف بعد ما بعتنى قافلة تشــاد دى إنه ينسبه لنفسه وينشره باسمه.. وأديك بتقول أهه إنه هيبيع براءة اختراعه كمان.

امتقع وجه عم جميل وكذلك أبو محمود، الذى اندفع قائلًا:

– بس ده يبقى حرامى ابن..

جعلت أحكى فى تفاصيل ربما لـــن يفهم منها عم جميل وأبو محمود شيئًا إلا أنه سيريحنى كثيرًا أن أشارك أحدًا آلامى أيًا كان. رأيت منهم تفاعـــلًا مع قصتى لم أجده حتى مع دكتور نادر الذى كانت رؤيته أكثر عقلانية فقال أبو محمود فى تأثر:

– لا حول ولا قوة إلا بالله.. طب وإنت هتعمل أيه دلوقتى يا دكتور أيمن.

– مـــش عـــارف والله أنا بين إن أنـــا أروح أعتـــذر لدكتور مدحت وأطاطى علشان الأمور تمشى، وبين إنى أصر على موقفى. بس خايف أخسر كتير لو عملت كده.

أسند عم جميل ظهره على كرسى المقهى الخشبى ثم قال:

– بص يا أيمن يابنى.. فى الشـــارع ده كان عندنا أمين شرطة بلطجى اسمه جابر وكان بياخد إتاوات من الكل حتى الست الغلبانة اللى بتبيع خضار كان بيقاسمها فى رزقها ورزق عيالها.. وكان ابنها عبده شاب ما شـــاء الله جته كده كان بيدرس فى جامعة وكل أول أسبوع يروح يدى لصاحبك ده الإتاوة.. كل أما يتأخر فى أسبوع كان ياخد علقة موت.. ويروح لامه مضروب ومتبهدل تقول له معلش يابنى استحمل.. إحنا مش قده لحد ما فى يوم أمه تعبت ومعرفتش تسد الإتاوات الأسبوعية..

البلطجى ده جالها البيت طربقه عالى فيه الست الغلبانه ماتت والواد هرب من بطش البلطجى ده.

تابعت فى تركيز أحاول أن أفهم ما يرنو إليه عم جميل، الذى رشف رشفه من فنجانه ثم تابع قائلًا:

– فيه شاب صغير كده وغلبان إسمه «نور الدين» جه سكن فى الحته وكان بيسترزق من عربية فول على أول الشارع جاله جابر ده علشان يطلب منه إتاوه.. رفض وقاله «بأمارة أيه يعنى».. إداله علقه محترمة صاحبك ده من طيبته راح بلغ البوليس فاكر إنه ممكن يطول حاجه.. لما جابر عرف ضربه تانى.. مسكتش؛ لف على أهل المنطقة بيت بيت يقول لهم هو جابر ده هيفضل ذاللكم لحد إمتى لازم نعمل حاجة.. ولم كام واحد من اللى اقتنعوا بكلامه وراحوا وقفوله، عارف.. نور ده جابر غزه فى الخناقة ومات بس ساب للناس «نور» تمشى عليه.. الناس من يومها ماعدتش بتخاف وقفت لجابر لحد ما الداخلية وقفته واتقبض عليه وسمعنا بعدها إنه أخد إعدام.

صمت برهه ثم تابع قائلا:

– الناس لسه فاكرين نور الدين ده عمره ما غاب عن ذاكرتهم.. عاش راجل ومات راجل..

ثم قام وأشار على لافتة على الناصية كتب عليها «شارع نور الدين» وقال:

-شوف إنت بقى عاوز تعيش عبده ولا تبقى نور الدين حتى لو مت.

بقيت مذهولا للحظات قبل أن أســتأذن فى القيام. غادرت المقهى دون حتى أن أحاسب على كوب الليمون الذى تركته ممتلئا.

(16)

فى قطار الســـاعة السادسة صباحًا من محطة قطار إيتاى البارود؛ ذاك القطار الذى عادة ما يعج بالبشر هو اليوم هادئ نسبيًا، هكذا هى أيام أجازة آخر العام حيـــث يغيب الطلاب عن المشـــهد ليتركوا خلفهم طرقات خالية. طيلة يومين لم يتوقف ذهنى عن التفكير يتردد فى مخيلتى كلمات عم جميل «يا تعيش عبده يا تبقى نور الدين حتى لو هتموت». كذلك نصيحة دكتور نادر لم تفارقنى «لازم نطاطى شوية علشان الريح متكسرناش». بالرغم من أننى كنت قد عزمت على إتخاذ موقف إلا أن الموقف الآخر يطاردنى.

عندما ذهبت الكلية يوم الخميس كانت خواء. لم يحضر دكتور مدحت أو أي من الأساتذة ربما جاء أحدهم وتوجه لمتابعة أعمال التصحيح فى مقر الكنترول وكذلك مدام فتحية كانت فى أجازة. جلســـت وحدى قرابة الســـاعة مرت خلالها إحدى معيدات القســـم كانت على موعد مع المشرف على رســـالتها الذى اعتذر لها تليفونيًا فغادرت بعد مجيئها بدقائق. توجهت بعد ذلـــك إلى الكافتيريا حيث تناولت فطورًا خفيفًا وعدت إلى القسم مرة أخرى وجدته كما تركته. ساعة إضافية من الملل غادرت بعدها الكلية حيث سافرت إلى بلدتى.

عندمـــا وصلت ارتميت فى أحضان أبى اعتـــذرت له عن بعدى عنه

الأيام الســـابقة لانشـــغالى. لاحظ فى وجهى نظرات الأسى فبادرنى بالقول:

– مالك يا أيمن مش عاجبنى كده من ساعة ما رجعت من السفر.

حاولت مواراة آلامى بابتسامة متكلفة وقلت:

– أنا بس كنت مخضوض عليك يا حج.

– يعنى أنا مش هعرف لما تكون متضايق وشـــايل الهم.. قولى يابنى فيك إيه؟

– أنا كويس يا حاج طول مانا شايفك كويس.. ربنا يخليك لينا يارب.

لم أخبر أبى شيئًا فقط قلت إنها متاعب فى العمل والرسالة ولم يقو هو على اســـتجوابى أكثر من ذلك. حاولت خلال أجازتى أن أنفصل عن الأحداث الجارية فى الكلية ومشـــاكلى مع دكتور مدحت فلم أستطع، تطاردنى أفكارى حتـــى فى أحلامى إن جاءنى النوم أصلًا. حتى أننى اليوم أجلس فى القطار كالتائـــه. أحاول أن أفتح مصحفى أقرأ وردى اليومى، أو حتى أقرأ فى كتاب فلا أستطع فاستسلمت لأفكارى.

****

وصلت الكلية قبل التاسعة توجهت مباشرة إلى مكتب وكيل الكلية حيث طلبت مقابلته كان مشغولًا فى اجتماع لذا طلبت منى السكرتيرة العودة بعد الثانية عشرة ظهرًا. ذهبت إلى القسم وفى طرقته قابلت مدام فتحية التى طلبت منى أن أغادر القســـم فـــورًا لوجود دكتور مدحت

الذى يرفض تواجدى بالقسم، إلا أننى أبيت ذلك واتجهت إلى حجرة المعيدين. تبعتنى مدام فتحية وجعلت تستجدينى ألا أسبب لها مشاكل، حينها سمعنا صوت دكتور مدحت طلب مدام فتحية وتحدث معها قليلًا ثم صحبها إلى غرفة المعيدين وصاح فىَّ قائلًا:

- إنت بتعمل أيه هنا؟

أجبت فى ارتباك:

- أنا.. أنا متواجد فى القسم كجزء من مهامى.

- أنا مش قلت متدخلش القسم ده تانى..

واجهته محاولا إظهار شيئًا من الثبات:

- حضرتك مش من حقك تمنعنى من دخول القسم.

إحمر وجهه وانتفضت عروقه وهاج وماج وتوعدنى بويلات غضبه وجحيم عقابه، ثم انصرف وهو يطلب شخصًا ما على هاتفه. لم أظهر اهتزازًا أو خضوعًا جلست أطلع على أحد الكتب الخاصة بعلم الأدوية لم أستوعب شيئًا مما قرأت بالتأكيد فقط حاولت إظهار التماسك والثبات.

قبل الثانية عشرة بربع ساعة شرعت فى الانصراف من القسم فنادتنى أم السعد من داخل البوفيه ذهبت إليها فجعلت تنصحنى بكلماتها البسيطة:

- خد بالك يا دكتور أيمن دكتور مدحت مش سهل.. ده واصل

ومعارفه فى كل حته.. أنا يابنى أعرفه من أيام ما كان لسه معيد.

أجبتها بثقه نابعة من إيمانى بالله:

– متخافيش علىَّ يا أم السعد.. مش هيحصل غير اللى ربنا كاتبهولى وأكيد ربنا كاتب لى الخير.

ثم انصرفت وأنا أسمع دعواتها التى جعلت ترددها وأنا أغادر المكان. توجهت مباشرة إلى مكتب وكيل الكلية. كان العديد من الزائرين بانتظاره حجزت مكانًا بين الموجودين ثم انتظرت بالخارج حتى دعتنى السكرتيرة للدخول. فى الداخل شرحت له الأمر فى عجالة كما طلب، لم يبد أى تعبير أو رأى فقط أخبرنى أن عليه أن يسمع من دكتور مدحت وطلب منى أن أصيغ عريضة شكوى أودعها لدى السكرتيرة وسوف يحيلها إلى الشئون القانونية.

فى الخارج كتبت الشكوى بتأن صغت بها اتهامًا مباشرًا لدكتور مدحت بسرقة مجهودى البحثى وشرحت كافة تفاصيل الموضوع وتركته للسكرتيرة حيث أكدت عليها أن تسلمه لوكيل الكلية. هدأ هذا الأمر من روعى وجعلنى أشعر بشىء من الرضا ثم انصرفت من الكلية حيث عدت إلى الشقة وأعددت وجبة سريعة للغداء ثم جهزت نفسى للذهاب إلى العيادة.

بعد الانتهاء من العمل فى العيادة انتظرت دكتور نادر الذى بدا مستعجلًا فاصطحبنى معه فى سيارته حتى وصلنا الكورنيش فى خلال

الطريق وضحت لدكتور نادر ماحدث. اعترض بشدة على إصرارى. حاولت أن أوضح له وجهة نظرى وأننى أعلم جيدًا أن الله سينصفنى لأننى على حق قال:

– بـــص يا أيمن أنا نصحتك وإنت أصريت عـــلى اللى فى دماغك.. يبقى تتحمل مسؤلية اللى هيحصل لك.

كـــم آلمتنى كلمات دكتور نادر الذى أوقف ســـيارته للتو على جانب الطريق إلا أنه عاد ليقول:

– بص يا أيمن يا بنى أنا عارف إنك على حق بس لازم تبقى عارف إنه مش زى الأفلام إن الحق دايمًا بينتصر وكده.. فيه ناس بتعيش مظلومة وتموت مظلومة والمظالم تترد عند ربنا.. أنا بقول لك كده علشان عارف الأمور بتمشى إزاى هنا، وخايف عليك إنت زى إبنى.

****

فى طريقى إلى الشـــقة من الكورنيش حيث تركنى دكتور نادر قابلت عم جميل الذى كان فى طريقه إلى المقهى. بادرنى بالقول:

– إزيك يا دكتور أيمن.. أخبارك إيه؟

– بخير والله يا عم جميل.

– بقالك يومين غايب.. مش ناوى تيجى تشرفنا النهارده؟

– لأ مش هقدر والله.. تعبان شويه وبقالى يومين مش بنام كويس..

– طب طمنى عملت أيه فى مشكلتك؟

– قدمت شـــكوى النهارده لوكيل الكلية.. وقالى هيحولها للشئون القانونية ويستجوب دكتور مدحت وهنشوف هترسى على إيه..

بدى على عم جميل علامات الرضا ثم تابع قائلًا:

– خطوة كويسة.. هتعمل إيه تانى؟

– مش عارف والله يا عم جميل.. خايف أندم.

– عمرك ما هتندم.. مفيش حد بيندم إنه كان راجل فى يوم من الأيام ودافع عن حقه.. اللى يندم بجد اللى يسيب حقة يضيع من غير ما يقف للى ظلمه.. يبقى هو كده اللى بيظلم نفســـه. إستعين بالله يابنى وسيبها عليه وربنا مش هيضيعك أبدًا.

– يا رب يا عم جميل.. دعواتك.

– بدعيلك والله يا بنى.

كنا قد وصلنا إلى المقهى فاستأذنت بالانصرف فاستوقفنى عم جميل مرة أخرى قائلا:

– بقولك يا دكتور أيمن. أيـــه رأيك لو نروح لمحامى ناخد رأيه. أنا أعرف محامى فى المنطقة هنا إنما إيه.. جدع أوى وشاطر.. وممكن يرفع لك قضيه تجيب بيها حقك.

– أنا مش عاوز الموضوع يوصل للمحاكم.. نشوف الشكوى هتعمل إيه الأول.

– أنـــا أقصد ناخد رأيه بـــس.. ممكن يفيدنا أو يكـــون عنده حلول جديدة.

– برضو خلينا نأجل الموضوع ده شويه.

شـــكرته كثيرًا على اهتمامه، واستأذنته بالانصراف وعدت إلى شقتى مثقلاً بالهموم والأفكار. لم يعد هنـــاك ملجأ إلا الله. جعلت أدعوه أن يفك كربى، ويفـــرج عنى ما أنا فيه ويدلنى على الطريق الســـديد. ثم توجهت إلى سريرى فى محاولة بائســـة لاستدعاء النوم ولكن النوم أبى أن يزورنى على مدار ساعتين.

مع انشـــغالى بمشـــكلتى، تذكرت دينا كم كنت أتمنى أن تكون إلى جوارى فى هذه الأيام العصيبة، أشاركها همومى وأشاورها فى أمرى. إن لم تضف لى شيئا فوجودها فى حياتى كان سيهون علىّ الكثير.

قمت من مكانى وفتحت حاسوبى وتابعت صفحتى التى كنت قد هجرتها أكثر من أســـبوع بعدما يئست أن أجد عنها جديدًا وهى التى لم تكن تغيب عن صفحتها أبدًا. شـــهر كامل أتابع صفحتها كل يوم لا جديد. ويبدو أنها تركتها مع ذكرياتها وحياتها القديمة هنا قبل السفر، لتقطع حبل الذكريات وتعيش واقعها الجديد. عندما فتحت صفحتى وجدت العديد من الرسائل، والإشعارات، وطلبات الصداقة إلا أننى لم أهتم بكل هذا. تركت كل شـــىء وفتحت صفحتها. كنت أتمنى أن أرى لها أى منشور أطمئن به على حالها إلا أنها كانت كما تركتها آخر مرة لا جديد. هى بالتأكيد مشـــغولة بحياتها الجديدة. هل يا ترى هى تجد

سعادتها الآن؟ حقًا أتمنى ذلك.

فتحت صفحة الرسائل ليلفت انتباهى رسالة من أحد الأصدقاء. كان معى فى إمتحان الزمالة. بالفعل وكما توقعت إنه يخبرنى بأن نتيجة الزمالة قد ظهرت. دخلت مسرعًا إلى بريدى الإليكترونى كانت هناك رسالة من الكلية الملكية تبشرنى بنجاحى وبدرجة عالية فى الجزء الثانى من الزمالة. هكذا بقى لى إمتحان وحيد حتى أحصل على درجة الزمالة. بدا لى كشعاع أمل وسط ظلام الأحداث ودمسة الواقع الذى أحياه.

****

فى صباح اليوم التالى عندما وصلت الى الكلية توجهت إلى القسم وهناك قابلت مدام فتحية التى فاجأتنى بأن خطابًا قد وصلنى القسم يطلبون مقابلتى فى إدارة الشئون القانونية. تعجبت من سرعة استجابتهم للشكوى واهتمامهم بالأمر لم أهتم بفتح الخطاب توجهت مباشرة إلى مقر الشئون القانونية، حيث قدمت نفسى إليهم فأخبرونى أن التحقيق مع أستاذ على.

عندما وصلت مكتبه كان بمواجهتى شاب صغير يبدو أنه حديث التخرج بدا لطيفًا وإن كان يظهر عكس ذلك ليناسب مقعده كمحقق طلب منى الجلوس ثم أنهى ما كان يشغله قبل أن يتابعنى بإبتسامة لم يستطع حبسها وقال:

- أهلا بيك يا دكتور أيمن.

– أهلا بحضرتك يافندم.. أنا مبسوط جدًا إن الشكوى لاقت اهتمام بالسرعة دى.

رد باستغراب:

– مبسوط بأيه ؟ شكوة إيه؟

– الشكوى اللى أنا قدمتها إمبارح.

– أنـــا معرفش إنت بتتكلم عن أيه بالظبط ! أنا قدامى تحقيق فى أكثر من شكوى ضدك.

أجبت بذهول

– ضدى أنا !! شكاوى أيه ؟

– متقدم ضدك شـــكوى من الدكتور مدحت يونس رئيس قســـم الأدوية إنك قمت بإهانته وتطاولت عليه لفظيًا وحاولت التعدى باليد.

– أنا.. أيه ده محصلش طبعًا.

– كمان فيه شـــكوى مرفوعة من القســـم عندك إنك بتستغل المكتبة وبعض قاعات الكلية فى غير دورها وبتدى دروس خصوصية.. وفيه شكوى تالته إنك حاولت تغشش بعض الطلاب أثناء مراقبتك لأعمال الإمتحانات.

لم أســـتوعب هذا السيل من الإتهامات الباطلة، وصحت فى إنزعاج بالغ:

– محصلش طبعًا أى حاجه من الحاجات دى!

فأجاب فى هدوء:

– تمام أنا هنا عشان أسمعك.. قل لى بقى ردك على الكلام ده علشان كل اللى هتقوله هيتسجل فى المحضر.

حاولت أن أستفيق من صدمتى. لقد بدأ دكتور مدحت بالفعل فى تنفيذ وعيده. أيًا من هذه الشكاوى يكفى لتدمير مستقبلى. بدأت أوضح للمحقق أولًا الشكوى التى قدمتها بالأمس عند وكيل الكلية والتى أكد أنها لم تصل حتى الآن، ثم بدأت أدافع عن موقفى وأفند الاتهامات المنسوبة إلىَّ ظلمًا وأكدت أن هذه الشكاوى هى محاولة من دكتور مدحت لإخضاعى وأن شيئًا من ذلك لم يحدث. لم يظهر المحقق أي انطباع حتى أنا إبتسامته التى قابلنى بها قد غابت مع بداية التحقيق وعندما أنهيت دفاعى، قال لى كما فى الأفلام:

«هل لديك أقوال أخرى؟»

ثم شكر لى تعاونى وأكد حرصه على الوصول للحقيقة وعندما سألته عن عدم وصول الشكوى التى قدمتها أخبرنى أنه لا يعلم ربما تأتى فى بوستة اليوم التالى أو ربما ما زالت فى مكتب الوكيل وعلىَّ أن أسأل هناك. إنصرفت وقلبى منفطر، كيف تعقدت الأمور بهذه السرعة! ووصل الأمر لهذا الحد أتساءل هل كان دكتور نادر محقًا فيما قال؟ هل تسرعت فى قرارى؟

خرجت من إدارة الشـئون القانونية وتوجهـت مباشرة إلى مكتب وكيل الكلية. سألت السـكرتيرة على الشكوى فجعلت تبحث عنها بين أوراق كثيرة متراكمة على مكتبها فى فوضى ثم انتزعتها، كانت كما هى لم يضف إليها شيء. عندما سألتها قالت إنها تاهت بين الأوراق ولم تدخل بها للوكيل. اسـتأذنتها فى الاهتمام بالأمر وأخبرتها أننى سأعود آخر اليوم للمتابعة فأكدت أن وكيل الكلية مشغول جدا، ولن يستطيع أن يوقع على شيء اليوم وعلى ألا أرهق نفسى وأن آتى غدًا-إن أردت- لا أدرى كيف يتعاملون مع الأمر بكل هذا الهدوء.

لم أمر بيوم أسوأ من يومى هذا حتى أننى لم أتصل بأبى لأطمئن عليه كعادتى، سيقرأ حتمًا نبرة الألم فى صوتى، سيصله أنين زفراتى. أسمعت عن قهر الرجال إنه حقًا هو ما أقاسـيه الآن. لم أنعم بنوم طوال الليل حتى أن سواد الأرق لاقى مسكنًا حول مقلتي.

فى صباح يوم الإثنـين حاولت موارة آلامى حول جدار سـميك أحسب أنه لن يفضحنى فى كلماتى وأنا أطمئن على أبى وأعتذر له عن غيابى الليلة الماضية عـن مهاتفته. لم أحكِ له بالطبع فقط جعلت ألح عليه أن يكثر من الدعاء لى. أنهيـت مكالمتى مع أبى فى عجالة قبل أن تهرب منى عبرات وسط سيل دعواته ثم تحركت فى طريقى إلى الكلية حيث اتجهت مباشرة إلى مكتب وكيل الكلية. لن أترك الأمر للظروف. سأسعى وسأطرق كل الأبواب.

كان وكيـل الكلية مشـغولًا كعادته، هكذا أخبرتنى السـكرتيرة،

وقالت، إنها قدمت له الشكوى بالأمس، ولكن لم تحصل منه على الرد بعد. مرت دقائق الانتظار الصعبة ثم تفاجأت وأنا أرى دكتور مدحت يخرج من مكتب وكيل الكلية وابتسامه غير معتاده تملأ فاه. حين رآنى نظر إلىَّ نظرة ازدراء وغابت عنه ابتسامته، ثم ودع مضيفه بحرارة وخرج مسرعًا.

دخلت السكرتيرة لوكيل الكلية، وبعد دقائق أخرى من الانتظار القميء خرجت لتبلغنى بأنه قد أحال الشكوى إلى الشئون القانونية لاتخاذ اللازم، ولن يتحدث فى الأمر قبل انتهاء التحقيقات، طلبت مقابلته ولو لدقائق فأكدت أنه مشغول بشدة اليوم ولن يقابل أحدًا. أخبرتنى كذلك أن الشكوى ستصل الشئون القانونية مع «البوسته» فى الثانية عشرة ظهرًا.

خرجت من مكتب وكيل الكلية متجهًا إلى القسم كعادتى. كان القسم فى أيام الصيف قليل الزوار. حيث غياب المهام التعليمية، حتى أعمال التصحيح يتكفل بها الأساتذة والأساتذة المساعدون والمدرسون. وتكون فى مقر الكنترول بمبنى منفصل. وأعمال التصحيح هذا العام كانت قد انتهت منذ أيام. عادة كمعيدين يطلب منا أن نأتى يومين أسبوعيًا بالتبادل، لتلقى أسئلة واستفسارات الطلبة الصيفية، وإتمام بعض الأعمال البحثية، إلا أننى ومع مشكلتى أصبحت زائرًا دائمًا للقسم. اليوم قابلت إسلام وأيتن فى القسم. بدأ إسلام الكلام:

– أيه يابنى اللى سمعناه ده؟ إنت فعلًا عامل مشاكل مع دكتور مدحت؟

– يعنى أسيب البحث يتسرق منى يا إسلام.. وأقعد ساكت.

– لا يا عم.. محدش قال كده.. بس إنت حاسب للى إنت عملته ده؟

– والله يا إســـلام أنا مش حاسب لأى حاجة. أنا كل اللى كنت بفكر فيه إزاى أدافع عن حقى.. بس الموضوع شكله كبر مرة واحدة.. وربنا يسترها.

تدخلت أيتن التى كانت تتابع الحديث باهتمام:

– كبر إزاى يا أيمن.. إيه اللى حصل؟

جعلت أحكى لهم ما حدث وكيف اتهمنى بالباطل، وكيف بقيت فى موقف الدفاع. رأيت منهم تعاطفًا معى ورأيت جدية من إسلام لم أرها منه من قبل. رد إسلام:

– طـــب ليه مكلمتش دكتور عبد المنعم. ما هو كان مشرف هو كمان معاك على الرسالة.

– إنت عارف إن دكتور عبد المنعم مش بيقدم ولا بيأخر.. واســـمه موجود صورة بس على الرسالة. تلاقيه ميعرفش أصلًا إنه مشرف علىَّ. هبقى أكلمه قدام لو إحتاجته.

أبديا تعاطفًا مع كلامى، لكنهـــما فى ذات الوقت حذراني من دكتور مدحث وغضبته، وطلبا منى أن أتوخى الحذر. كما أكدا على دعمهما لى واستعدادهما لمساعدتى إذا ما احتجت إليهما.

بعـــد صلاة الظهر اتجهت إلى مكتب الشـــئون القانونية ســـألته عن

الشكوى فأخبرنى أحد الموظفين أنها وصلت، ولكن على أن أسأل فى اليوم التالى، فمدير الشئون القانونية غير متواجد ولن يوزع الشكوى إلى الموظف الذى سيتولى التحقيق قبل الغد. أربع وعشرون ساعة إضافية علىَّ أن أنتظرها قبل أن أجد جديدًا أتساءل كيف لاقت الشكاوى التى قدمها دكتور مدحت طريقها إلى الشئون القانوية بهذه السرعة.

****

(17)

فى منطقة الشاطبى بالإســكندرية، وداخل إحدى القاعات الخاصة بنادى أعضاء هيئة التدريس بجامعة الإسكندرية كان الدكتور مدحت يجلس وسط الحضور فى اليوم السنوى للبحث العلمى بالنادى.

فى كلمة موجزة ألقاها نائب رئيس الجامعة أكد فيها على أهمية البحث العلمــى والدور الذى يجب على أســاتذة الجامعة القيام به لتشــجيع الأجيال القادمة على القيــام بالأبحاث ونشرها. وعن دور الجامعة فى الارتقــاء بالبحث العلمى من خلال دعم الباحثين وتوفير الإمكانات اللازمــة للأبحاث كذلك اهتــمام الجامعة بتكريــم القامات العلمية الكبيرة ذات الإســهامات العظيمة فى هذا المجــال. بعدها أعلن عن تكريم أفضل الأبحاث العلمية عن العام الدراسى المنقضى والتى يأتى فى مقدمتها بحث الدكتور مدحت يونس والذى يعد من أهم الأبحاث فى المجال الدوائى.

تم تكريم دكتور مدحت وتســليمه درع الجامعة وشهادة تقدير. ثم طلب منه أن يقدم كلمة للحضور فقال:

– بسم الله الرحمن الرحيم «وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ»صدق الله العظيم. بداية أشــكر المولى عز وجل على عونه وتوفيقه، ثم أشــكر إدارة الجامعة وإدارة كلية الطب على الوقوف إلى

جوارى. لقد كان هذا البحث نتاجا لعمل جاد وجهد متواصل على مدار أربع سنوات. اجتهدت خلالها فى أن أقوم بمتابعة كل شىء بنفسى. إلى جانب ذلك قمت بمساعدة بعض الشباب وإشراكهم فى بعض الأعمال البحثية كى يتعلموا أسس البحث السليمة. ثم هى نصيحة أقدمها إلى زملائى وإخوانى من أعضاء هيئة التدريس. الاهتمام بالبحث العلمى والباحثين الصغار هو سبيل تقدم هذا الوطن.

ظل يتحدث بعدها عن أهمية البحث الذى قدمه فى المجال الدوائى، وكيف أن العديد من شركات الأدوية العالمية تسعى إلى شرائه إلا أنه يفضل أن يتم إنتاج هذا الدواء بأيدى مصرية خالصة حتى يظل لمصر السبق. صفق الجميع له بحرارة ثم عاد ليصافح الجالسين على المنصة ثم إلى مقعده بين الحضور. تم أيضًا خلال الندوة تكريم عدد من الأبحاث المنشورة عالميا، ثم اختتمت الندوة بدعوة لجميع الحضور لتلقى الغداء فى مطعم النادى.

على إحدى طاولات المطعم جلس الدكتور مدحت بصحبة بعض زملاءه بالأقسام المختلفة، والذين أشادوا بما قدمه وظلوا يسألونه أثناء تناول وجبة الغداء عن خطوات البحث التى كان لا يدرى عنها سوى القليل، ولكنه دخل فى حديث علمى معقد بعض الشىء حتى يتجنب المزيد من الاسئلة. بعدها سأله أحدهم:

– مش حضرتك قلت إن فى شباب شاركوا معاك.. ليه مكتبتش أسماءهم معاك ع البحث، تشجيعا ليهم؟

رد دكتور مدحت بشيء من الغرور:

– أنا اللى عملت كل حاجه بنفسى.. مشاركة الشباب كانت مجرد تدريب ليهم على البحث العلمى وكفاية إنى هساعدهم بالأبحاث دى يعملوها رسالة ماجستير. وهيترقوا ويكبروا ويعملوا أبحاث خاصة بيهم.

رد آخر:

– إنت مَثَل والله يا دكتور مدحت، وقدوة لكل الشباب الصغير.

رد دكتور مدحت:

– للأسف..بس الشباب اليومين دول متسرع دايما، ومش بيحترم اللى أكبر منه.. الفضائيات ومواقع التواصل الاجتماعى بوظت دماغهم، ورفعت الكُلفة وشالت الفوارق. وخليتهم يتطاولوا على أصحاب الفضل عليهم.

– عندك حق فعلًا والله..

–عندى معيد فى القسم، كان دكتور عادل الله يرحمه مشرف عليه.. لحد ما مات دكتور عادل مكانش إتقدم فى الرسالة ولا عمل أى حاجة. أشفقت عليه وقلتله يساعدنى فى خطوة من خطوات البحث النهائية، ووعدته إنى أساعده فى رسالة الماجستير. لما لقى الموضوع إتنشر وشركات هتشتريه.. لقيته بيطالبنى بنسبة فى أرباح براءة الاختراع. بس أنا مبحبش الابتزاز. لما رفضت لقيته بيتهمنى إن البحث بتاعه وأنا اللى

سرقته منه. وفضـــل يعلى صوته عليّ، وتطاول وكان هيمد إيده كمان.. تخيلوا.

جعـــل كل منهم يتمتـــم «لا حول ولا قوة إلا بـــالله» وجعل دكتور مدحت يصف كيف يكون رد الإحسان بالإساءة.

بعد الانتهاء من الغداء وقبل مغادرة المطعم اقترب أحد الأســـاتذة إلى طاولة الدكتور مدحت ليلقى التحية على الجالســـين ثم يستأذن فى الجلوس ويبدأ بتعرفهم بنفسه:

– أنا الدكتور أحمد أبو الفضل أســـتاذ بكلية الصيدلة وعضو مجلس إدارة شركة «إيفانكو فارم» للأدوية.

ثم وجه كلامه إلى دكتور مدحت:

– أنا فخور جدًا بإنى إتعرفت على حضرتك النهارده.. أنا قريت عن البحث بتاع حضرتك بس سعادتى إكتملت برؤية حضرتك.

رد الدكتور مدحت بذات الوجه الخالى من التعبيرات:

– متشكر جدا يا أفندم.

– حضرتـــك قلت إنك تحب إن الدوا يكـــون منتج مصرى. وإحنا يشرفنا إننا نتعاون مع حضرتك فى ده.

– أيـــوا.. بس أنا عندى عروض مـــن شركات مصرية كتير. دا غير الشركات الأجنبية طبعًا..

– وإحنا مع حضرتك فى اللى تطلبه..

رن هاتف دكتور مدحت فاستأذن وقام خارجًا من المطعم ليرد. كان اتصالًا من إحدى الشركات الأجنبية التى كان دكتور مدحت قد وقع معها عقد الحق فى إنتاج الدواء واحتكاره لمدة خمسة أعوام، يطلبون منه بعض البيانات فى البحث لعرضه على لجان مختصة لديهم. تحدث معهم بلغة إنجليزية ركيكة أنه سيرسل لهم تلك البيانات فى أقرب وقت، ثم طلب منهم إرسال شيك بالقسط الأول من المبلغ المتفق عليه فى العقد أو تحويله إلى حسابه البنكى. عاد دكتور مدحت إلى طاولته بعد انتهائه من المكالمة، ثم أردف قائلا:

– كنا بنقول إيه؟

– كنا بنتكلم عن تعاون بين حضرتك والشركة عندنا.

– تمام.. تمام.. إبعت لى إيميل فيه العرض بتاعكم، وأنا هفاضل بين العروض اللى متقدمة لى، وهبقى أرد عليكم.

– تمام يا دكتورنا.. دا الكارت بتاعى.. وأستأذن حضرتك فى رقم تليفونك والإيميل الخاص بيك، وأتمنى إن يكون فى لقاءات أخرى بينا.

أخرج دكتور مدحت الكارت الشخصى الخاص به وأعطاه إياه قبل أن يستأذن الدكتور أحمد بالانصراف مؤكدًا امتنانه لمعرفة الدكتور مدحت.

بعدما انصرف الدكتور أحمد عاد الجلوس إلى حوارهم إلا أن الدكتور

مدحت كان مشغول البال عن الحضور بالبيانات التى طلبتها الشركة. هــو لديه كل البيانــات بالفعل، ولكنه يحتاج إلى اســتخراج البيانات المطلوبة من وسط الكم الكبير من البيانات الموجودة لديه.

اســتأذن دكتور مدحت فى الانصراف إلا أنه وجد أحد الأســاتذة مقبلًا عليه. ألقى التحية على الحضور وعرفهم بنفسه. إنه الدكتور نادر أبو الغيط. أردف الدكتور نادر قائلا:

– ممكن أستأذنك يا دكتور مدحت فى كلمتين على انفراد.

رد دكتور مدحت:

– للأسف.. أنا مشغول جدًا دلوقتى ولازم أمشى.

– بس أنا محتاج حضرتك فى موضوع ضرورى ومش هطول عليك.

– طب.. إتفضل أنا سامعك.

– لا.. أستأذنك كلمتين لوحدينا.

استأذن دكتور مدحت الموجودين. وإنزوى مع دكتور نادر فى إحدى الطاولات البعيدة. ودار بينهما حوار استمر لأكثر من ساعة. انصرف بعدها كل منهما فى طريقه.

(18)

كانت الأيـــام التالية تنقضى فى رتابة شـــديدة؛ فى الصباح أذهب إلى الكلية، ثم أعود إلى الشقة لدقائق، أتناول خلالها وجبة خفيفة، وأتجهز للخروج. أنتقل بعد ذلـــك إلى العيادة، وعند عودتى أذهب إلى المقهى الذى أصبحت ضيفًا شـــبه دائم عليه. ألتقى عـــم جميل وأبو محمود، وبعض من رفاقهما، أحرق معهم بعض الوقت. أحاول أن أنسى نفسى مع حكاياتهم الطريفة والمسلية، ثم أعود إلى شقتى لتغمرنى الأفكار من جديد قبل أن أغيب فى نوم يطارده شبح الدكتور مدحت.

مر أسبوع على وصول الشكوى إلى إدارة الشئون القانونية. كنت قد مررت عليهم فى اليوم التالى، وأخبرونى بشىء من الضجر أن المدير فى راحة ليومين. طلبوا منى كذلك أن أترك رقم هاتفى، ثم هم سيتصلون بـــى إذا ما كان هناك جديد، إذ إنه لا طائل من العوده كل يوم للمتابعة بنفسى. الأمور تسير فى نسق معتاد، وسيتحدثون إلىَّ عند طلب أقوالى.

خلال هذا الأســـبوع التقيت بدكتور مدحت مـــرة واحدة فقط فى أروقة القسم. بدى حينها مشغولًا جدًا، إذ إنه لم يبق بالقسم إلا لدقائق. تحدث خلالها إلى مدام فتحية الســـكرتيرة، وجمـــع بعض الأوراق، ثم انصرف مسرعًا. عندما التقانى لم يتحدث معى. فقط نظر إلىّ نظرة تحد، وحينما خرج من القســـم تحدثت إلىّ مدام فتحية. طلبت منى مجددًا أن

أتقـــى شره، وألحت علىّ أن أحاول الصلح. بدا لى أنها تعلم شـــيئا ما، وتخفيه عنى.

كنت قد ســـافرت إلى البلـــدة يومى الخميس والجمعـــة الماضيين. اطمأننت على حال أبى الذى تعـــافى من مرضه، وعادت إليه صحته. لم أقص عليه شـــيئًا مما حدث بالكلية بالتأكيد. رغم أنه يقسم أن شيئًا ما أخفيه عنه، إلا أننى آثرت ألا أقص عليه شيئًا، ولا أشغل باله بما لن يضيف إلى الأمر إلا المزيد من الألم.

أبى يرى أن ما ألم بى ســـببه الوحدة، وأن عـــلىّ أن أفكر فى الزواج. اقترح علىّ أكثر من فتاة من أهل البلدة. إلا أننى اســـتأذنته ألا يلح علىَّ فى هذا الأمر، وطلبت منه تأجيل الأمر بعض الوقت، وأن علىّ التركيز فى رسالة الماجستير هذه الأيام، حتى أنتهى منها قريبًا. ووعدته بالتفكير بجدية فور الانتهاء من الرسالة ومناقشتها.

بالأمـــس فقط تلقيت اتصـــالًا هاتفيًا من إدارة الشـــئون القانونية. أبلغونى خلاله أنه قد تم فتح التحقيق فى شكواى، لدى موظفة تدعى الأســـتاذة هناء، وأنها تود مقابلتى فى اليوم التالى، لتستفسر عن بعض الأمور، قبل التحقيق مـــع دكتور مدحت. كل هذا التأجيل، ومضيعة الوقت، حتى يتم فتح تحقيق فى شـــكوة منى، أما الشكاوى التى قدمها دكتور مدحت، فقد لاقت طريقها إلى مكتب المحقق بهذه السرعة. حتى أنهم بصدد استصدار قرار نهائى بشأنها، هكذا أخبرنى الأستاذ «على» فى آخر لقاء لى معه. قال كذلك إنهم أخذوا شـــهادة بعض الشهود. إلا

أنه أبى أن يطلعنى على المزيد بشأن هذا الأمر.

فى صبيحة يوم الإثنين، توجهت إلى إدارة الشـئون القانونية، وهناك التقيت الأستاذه هناء. سيدة فى العقد الخامس من عمرها. على وجهها أنـواع مختلفة من طـلاء الوجه، تحاول أن تدارى بها علامات السـن وخطوطه. إلى جانب ملابسـها متعددة الألوان فى بهرجة لا تناسـب سنها، ولا مكانتها. عرفتها بنفسى وجلست أمامها بابتسامة هادئة، ثم سـألتها عن استفساراتها التى دعتنى من أجلها. قطع حديثنا الذى بدأ للتـو صوت هاتفها. تناولت الهاتف وغابت لدقائق بصحبته فى حوار ملىء بالمزاحات السخيفة، والضحكات العالية، ثم عادت الىّ قائلة:

– لا مؤاخذة يا دكتور أيمن.. كنا بنقول إيه؟

– حضرتـك اللى كنتى طلبتينى النهارده، عشـان تسـتفسرى منى بخصوص الشكوى اللى أنا مقدمها.

– أه.. إفتكرتك.. ثانية واحدة هطلع ملف الشكوى بتاعتك.

جلسـت تفتش فى درج مكتبها، بين الأوراق المبعثرة فى عشـوائية، لتخرج ملفًا كرتونيًا باليًا، ثم تفتحه على ورقة أرفقت بالشكوى بها عدة توقيعات، ثم قالت:

– إنت بتقول فى الشـكوى إن البحث اللى إتنشر إنت صاحبه.. وإن دكتور مدحت سرقه منك، ونشره باسمه..

– أيوا.. بالظبط كده.

– طيب.. المفروض شـــكوى زى دى يكون معاها أوراق تثبت ده، وإلا ميبقاش ليها أى قيمة.. ولا إيه؟!

– أنا معايا ورق تســـجيل البحث الأصـــلى.. اللى كان مشرف عليه دكتور عادل الله يرحمه.

– تمام سلمها لى بقى عشان أرفقها بالشكوى.

جعلت أفتش فى حقيبتى عـــن أوراق البحث، التى لم تغادر حقيبتى يومًا. ثم أخرجت نســـخًا من أوراق تســـجيل البحـــث، وكذا الخطة البحثية المعتمدة من مجلس الكليـــة. أخرجت لها كل الأوراق المرتبطة بالبحث، وسلمتها إياها. جعلت تقلب فيها، وعلامات التعجب على وجهها، ثم قالت:

– بس دى كلها صور.. فين أصل الورق ده.

تذكرت أن جميع الأوراق الأصلية قد طلبها منى دكتور مدحت. لقد كانت النية مبيتة عنده. أردفتُ قائلًا:

– ما مش معايا أصل الورق.. دكتور مدحت كان أخده منى.

ردت بتهكم:

– خلاص نبقى نطلبه بقى من دكتور مدحت..

ضحكت ضحكة سخيفة، ثم أكلمت قائلة:

– مينفعش يا دكتور أيمن فى شكوى خطيرة زى دى، ومتقدمة ضد

رئيس القســـم إن يبقى معاها صور مش أصل الورق.. معندكش أى نسخ أصلية موقعة؟

– مهو كل الورق ده له نسخ أصلية فى الدراسات العليا.

– طيب.. يبقى تروح الدراسات العليا تجيب لنا نسخ أصلية أو أختام على الأوراق اللى معاك دى بإنها «صورة طبق الأصل» .

شـــكرتها وخرجت دون تفكير مسرعًا إلى الدراسات العليا. قابلت الموظف المختص بالأقسام الأكاديمية أســـتاذ ياسر بركات. كنت قد تعاملت معه فى عدة مواقف سابقة، حتى أننى قابلته أكثر من مرة عند دكتور نادر. كانت ابنته تعانى من حساسية شديدة منذ ولادتها، وكان يتردد بها على عيادة دكتور نادر باستمرار.

ذكرته بنفسى، وطلبت منه الأوراق الأصلية للبحث، أو توقيعه على الأوراق الموجـــودة معى. بدا وكأنه مشـــغولًا بأمور كثيرة، حتى أنه لم يظهر لىّ أى اهتمام، ثم طلب منى أن أعود إليه فى اليوم التالى لانشـــغاله الشديد اليوم. وأن البحث عن هذه الأوراق يحتاج إلى وقت طويل.

يا إلهى، إنهم يتعاملون مع الأمـــر بأعصاب هادئة للغاية. لا يدرون أن مســـتقبلًا على حافة الهاوية. حاولت معه كثـــيرًا أن يراعى ظروفى ويمنحنـــى بعضًا من وقته، نظرًا لخطورة الأمر. إلا أنه رد بشـــىء من العصبية:

– قلتلك مش فاضى النهارده يا دكتور.. لو شايف إنى بلعب ومش

شايف شغلى عندك مكتب المدير.. ممكن تشتكى له.

لا أدرى كيف أن صبرى لم ينفد فى ذاك الحين، حتى أننى اعتذرت له واستجديته أن يهتم لأمرى ويمنحنى شيئًا من وقته عندما أعود اليه فى الغد، ربما لم يكن لدى حل آخر وأنا أجد إصرارى يزيده عنادًا.

****

فى غرفة المعيدين أجلس وحدى لا أدرى ما أفعله، أتكئ برأسى على الطاولة الخشـــبية المواجهة لى وأحملق فى أرضية الغرفة فى بلاهة، ثم تمر بمخيلتـــى أحداث؛ جمة تلك التى واجهتهـــا فى الآونة الأخيرة ولكن بسيناريوهات مختلفة. فتارة أتخيل أن شيئًا من ذلك لم يحدث وأننى قاب قوســـين أو أدنى من مناقشة رسالتى، ثم ها هو دكتور عادل يعيننى فى تجهيز عرض الرســـالة للمناقشة، ويطالبنى بسرعة نشر الورقة البحثية المســـتخلصة من الرسالة. وتارة أخرى أرانى أهنئ دكتور مدحت على نشر الورقة ويعدنى هو بمستقبل متميز وتقدم سريع فى كنفه ثم..

– إيه يابنى اللى مقعدك لحد دلوقتى؟

كان هو إسلام زميلى بقامته المفرودة والتى تطلبت منى مجهودا لأطالع وجهه قبل أن أجيب:

– مـــش عارف هتصدقنى ولا لأ لو قلتلك مش قادر أتحرك.. رجلى مش شايلانى.

– يابنى وعليك بأيه كل ده.. أنا مش عارف الدوامة اللى إنت دخلت

نفسك فيها دى كان لزمتها إيه؟

نظر إلى فى تعاطف ثم أكمل قائلًا:

– أنا مردتش أتكلم قدام أيتن بس الصراحة إنت اللى كبرت الموضوع والأمور كان ممكن تتلم.. بص يا أيمن احنا مهما كان لسه فى أول الطريق ومحتاجين مساندة من الناس دى، مش نخسرهم ونقف قصادهم فى أول طريقنا.. وبعدين يا سيدى إنت ما شاء الله عليك يعنى دماغك عالية ولا أول ولا آخر بحث هتعمله.

أجبته بجدية:

– حقى يا إسلام.. ليه ببساطة كده متخيل إنى ممكن أفرط فيه.

– علشان تقدر تكمل.. يا عبيط إحنا لسه بنبنى لنفسنا مكان فى وسط الناس دى واللى إحنا عملناه السنين اللى فاتت يا دوب بيت إزاز صغير سهل يتهد علينا ومش بس هنخسر اللى بنيناه لا دا ممكن الإزاز يجرحنا كمان.

لم أملك ردًا فقط أومأت برأسى فى تفهم لما يقصده، ألح علىَّ بعدها أن يوصلنى إلى المنزل إشفاقًا منه لحالى، وتعمد خلال الطريق أن يتجنب الحديث عن الموضوع، فى حين تطرق إلى أمور أخرى، قبل أن يتوقف بالقرب من منزلى، ويطلب منى أن أعطى نفسى فرصة أخرى للتفكير، فيما علىَّ فعله لاحقًا، مؤكدًا أن حق سنين الزمالة يحتم عليه نصحى.

قضيت اليوم أفكر فيما قاله إسلام وهى المرة الأولى التى أشعر بهذا

القدر من الجدية فى حديثه. ربما كان محقًا بعض الشىء لكن هل ما زالت لدى فرصة للعودة. أحيانًا تكون قد أبحرت بالقدر الذى يجعل عودتك إلى الشاطىء مهلكة كتلك التى تنتظرك فى رحلتك إلى المجهول.

****

فى صبيحة اليوم التالى توجهت إلى إدارة الدراسات العليا. سألت عن الأستاذ ياسر، فأخبرونى إنه فى أجازة، كيف وقد أعطانى موعدًا اليوم؟ طلبت مقابلة مدير قسم الدراسات العليا، وبالفعل تحدثت إليه. اهتم بالأمر واتصل بالأستاذ ياسر فوجد هاتفه خارج التغطية. طلب من أحد الموظفين أن يساعدنى فى الوصول إلى الأوراق التى أبحث عنها. جلسنا نفتش فى أوراق التسجيل الخاصة بكل الأقسام الأكاديمية قرابة الساعة والموظف لم يتكاسل عن مساعدتى. إلا أننا لم نجد أى أوراق تحمل اسمى.

أخبرنى الموظف أنه ربما يكون أستاذ ياسر قد احتفظ بها فى أحد الأدراج الخاصة به قبل أن يغادر المكتب بالأمس ليسلمها إلىَّ مباشرة اليوم، ثم حاول الاتصال به مجددًا، إلا أن هاتفه مازال خارج التغطية. سيكون علىَّ الانتظار إلى اليوم التالى.

لم أمر على القسم. قدماى لم يساعدانى. عدت منهزمًا إلى حيث أسكن. لم أخرج،لم أعد أفتح صفحتى على «الفيس بوك» . ليس لدى طاقة ولا قدرة لرؤية تفاعلات الناس الإلكترونية. ولا أريد مشاركة

الناس همومى. حتى العيادة التى كنت أقضى بها بعض الوقت أتوارى من مواجهـــة أفكارى خلف آلام المرضى كانـــت فى راحة لبضعة أيام حيث ســـافر الدكتور نادر لأحد المؤتمرات. بدأت فكرة التراجع تترد فى ذهنى أكثر من مرة بل وتسيطر على تفكيرى، أشعر أنه صوت العقل الذى يحاول أن يحكم لجام قلبى الثائر.

حتى إذا جاء صبـــاح يوم الأربعاء، وكان يوم شـــديد الحرارة. على الرغم من أن شـــهر أغســـطس قد انقضى، والجو كان معتدلا فى الأيام السابقة. إلا أن حرارة الشـــمس اليوم لم يشهدها يوليو ولا أغسطس. توجهت إلى الدراســـات العليا قبل موعد دخول الموظفين. جلســـت أمام مكتب الأســـتاذ ياسر، وعينايا معلقة بباب الغرفة. بعد دقائق من الانتظار، رأيته يدخل حتى إذا التقت عيناناً، استدار خارجًا. فأسرعت خلفه. قال إنه سيطلب من العاملة كوبًا من الشاى، وسيعود فى الحال. تبعته حتى عدنا سويا إلى مكتبه، فرد بشىء من العصبية:

– خير يا دكتور؟

– كنت كلمت حضرتك على مشكلتى وطلبت أصل أوراق تسجيل البحث أو صورة طبق الأصل.

– طيب ســـيب لى بياناتك وتعالى آخر اليوم.. أكون دورت لك على الورق.

– أنا حضرتك كنت هنا إمبـــارح، والمدير كلف موظف يدور معايا عـــلى الأوراق. بس هو ملقـــاش أى ورق باســـمى.. وقالى إن يمكن

حضرتك تكون محتفظ بيه فى أى درج.

– لأ أنا محتفظتش بحاجة.. ووورايا شغل كتير متعطلنيش بقى. قلتلك تعالى آخر اليوم.

بدأت أعصابى تثور. والدماء تغلى فى رأســى. ولكنى حافظت على هدوئى بصعوبة بالغة، وقلت:

– حضرتك معلش تتعب نفسك شوية وتدور عليه دلوقتى.. عشان أنا عندى مشكلة كبيرة لا تحتمل الانتظار.

رد ببرود قاتل:

–والله.. مش شغلى. مشكلتك تخصك.. لما أخلص الشغل اللى ورايا هبقى أشوف لك ورقك ده.

لم أستطع أن أحافظ على تماسكى أكثر من ذلك، فرفعت صوتى قائلًا:

– أنا مش ماشــى من هنا غير لما تطلع لى الورق.. أنا مستقبلى بيضيع وسعادتك بتتهرب منى كل شوية ومش مراعى خالص.

تجمع الموظفون على صوتى. طلبوا منى أن أهدأ، حتى الموظف الذى ساعدنى بالأمس، طلب منى أن أنتظره فى مكتب المدير، وسيتولى هو الأمر.

دخلت مكتب المدير، الذى طلب منى هو أيضًا أن أهدأ، وطلب من العاملة أن تحضر لى كوبا من الليمون، ثم طلب الأســتاذ ياسر. عندما حضر توجه إليه المدير قائلًا:

– سيب كل اللى فى إيدك ودور للدكتور على الورق اللى هو عاوزه.

– حاضر يا باشا تحت أمرك.

بقيت فى إنتظاره ما يقرب من ســـاعة، وكوب الليمون أمامى، لم أمد يدى إليه. بينما انشغل المدير ببعض مهامه، قبل أن يعود إلىّ قائلًا:

– ما تشرب اللمون يا دكتور.

– متشكر جدًا لذوق حضرتك.. بس أنا مش هقدر أعمل حاجه غير لما ألاقى الورق.

دقائق ودخل الأستاذ ياسر، فبادره المدير قائلًا:

– إيه يا ياسر.. لقيت الورق.

– لا يا باشا.. مفيش أى ورق باسمه.

انفعلت من جديد، قمت من مكانى وجعلت أصرخ فى وجهه:

– إنت بتتكلم إزاى.. يعنى أيه مفيش ورق باســـمى؟ مش إنت اللى مستلم منى الورق.. يبقى إنت اللى مسئول عنه.

رد المدير ليهدأ من انفعالى:

– إهدا بس يا دكتور أيمن.. أنا بتكلم.

ثم وجه كلامه إلى الأستاذ ياسر:

– إنت مش فاكر إنك استلمت منه ورق البحث.

رد بذات الأعصاب الهادئة:

– أنا مش فاكر يا باشا.. أنا كل يوم بيورد عليّ كتير.. هفتكر مين ولا مين؟ وبعدين ده بيقول بقاله سنتين.

يا إلهى.. لقد نفد صبرى. صحت بأعلى صوتى أقسم أنه يكذب. جعل الجميع يهدءوننى، وطلب منى المدير أن أعود يوم السبت المقبل، وسيحاولون البحث ثانية.

أدركت أن هناك خطة محكمة من دكتور مدحت. الأستاذ ياسر جزء منها. لا فائدة من الجدل، فقد اختفت جميع أوراقى من ملفات الدراسات العليا عمدًا. لا أدرى كيف يستطيع أن يطعن ضحيته، ثم يعيش مرتاح البال.

خرجت من الدراسات العليا، بعدما وعدنى المدير بمراجعة جميع الأوراق ثانية، والتحقيق فى الأمر. خرجت وأنا على يقين أنه لن يضيف شيئًا. جعلت أجر قدماى اللتين لم يعودا يتحملان جسدى المثقل بالهموم. كدت أسقط على الأرض، إلا أننى تماسكت إلى أن خرجت من أبواب الكلية. ركبت سيارة أجرة. أوصلتنى إلى مكان الشقة.

فى المساء خرجت من المنزل لألقى عم جميل على باب العمارة، جعل الرجل يستفسر عن حالى والجديد فى شأنى أجبته إجابات مقتضبة واستأذنته فى الإنصراف فصاح بأنه سينتظرنى على المقهى عند عودتى فتمتمت بكلمات اعتذار لا أعرف إن كانت وصلته أم لا حيث إننى

كنت قد غادرت المنزل قبل أن أنهيها. توجهت منفردًا إلى شاطىء البحر ذاك الكهـــل الذى يحوى بجوفه آلافًا بـــل ملايين القصص من حكايا زواره جعلت أتابع تقلباته ما بين مد وجذر لأرى فيها عقلى المتقلب.

قضيت وقتًا لا أعلم أمده عادة فى حضرة البحر تنســـى قيمة الزمن، لكننـــى كنت قد عزمت أن أســـتخير الله ثم ســـأتوجه فى الغد لمقابلة الدكتور مدحت ومحاولة إصلاح الأمر والبقاء على آخر فرصى فى حل ودى يضمن عدم تصعيد الأمور أكثر، هكذا هدانى تفكيرى.

فى الطريق قابلت عم جميل وأبو محمود بذاك المكان فى المقهى دعونى للجلـــوس بصحبتهم فاعتذرت دون تبرير، الواقـــع أننى لم أرغب فى مناقشة أحد يثنينى عن عزمى، فأنا أعرف رأيهم فى الموضوع جيدًا، هم كذلك لا يدركون ما أعانيه ولن يشعروا بما بداخلى. فى ركعتين ختمتهما بدعاء الاستخارة جعلت أدعو الله أن يهدينى إلى الصواب وكان آخر ما فعلت قبل أن أخلد إلى نوم هادئ نسبيًا.

فى صبـــاح يوم الخميس طلبت مدام فتحية على الهاتف ســـألتها عن دكتور مدحت وفـــرص تواجده اليوم بالقســـم وأخبرتها عن عزمى الاعتذار له ومحاولة الصلـــح، فأثنت على ذلك القرار إلا أنها أخبرتنى أنه تأخـــر كثيرًا، بالطبع هى محقة، ولكن أن تأتى متأخرًا أفضل من ألا تأتى على الإطلاق. أخبرتنى أن الدكتور مدحت أبلغها بتواجده اليوم بالقســـم لوضع جداول الدراســـة للعام الجديد الا أنه سينصرف قبل الثانية عشرة لحضور اجتماع بالجامعة.

على أبواب العمارة سمعت عم صبحى البواب ينادى علىّ:

– دكتور أيمن.. يا دكتور أيمن.

تابعته وهو يقول:

– فى واحد من البوستة سأل عليك.. وقال إن لك جواب عندهم.. وقال هيرجع لك تانى الساعة واحدة.

– مقالش منين الجواب ده؟

– لأ يا دكتور.. مقالش أى تفاصيل.. حتى مرضيش يديهولى.. وقالى دكتور أيمن يستلمه بنفسه.

****

جلست بالإنتظار أمام مكتب دكتور مدحت حيث أبلغته مدام فتحية بتواجدى بالخارج وربما تكون قد أعطته خبرًا بما أنتوى إلا أنه تركنى فى الخارج ما يقرب من ساعة قبل أن يحضر أحد الأساتذة ويدخل مباشرة ثم دقائق ويخرج دكتور مدحت بصحبته دون أن يلقى بالًا للشىء الذى ينتظره أمام الغرفه ثم هو يتمتم بكلـــمات لمدام فتحية قبل أن ينصرف مغادرًا القسم.

– أخبرتنى مدام فتحية بعدها أنه أجل مقابلتى إلى الإســبوع القادم وأن على أن أهاتفها يوم الأحد لمعرفة الموعد الذى حدده للقائى.

****

بعد الواحدة بدقائــق دق جرس الباب. كان هــو مندوب البريد. اســتلمت منه الخطاب، ووقعت على إستلامه وشــكرته. كان خطابًا يحمل شعار الكلية. فتحته على عجل لأصعق بما فيه.

الفصل السادس

فى طريق الحق

فلتطرق كل الأبواب... لا تترك بابًا موصودًا

(19)

أصبح من الصعب جدًا مدارة الألم. يمكنك أن تخبئ خلف ظهرك حصاة أو حجرًا صغيرًا، يمكنك حتى أن توارى صخرة كبيرة، ولكن أنـــى لك أن تخفى عن الأنظار جبلًا من الهمـــوم. إجازتى فى نهاية هذا الإسبوع لم تكن بالعادية. ليســـت مجرد راحة أعود من بعدها للعمل، خاصة مع قرب بداية العام الدراســـى الجديد، أنـــا أعود إلى أحضان بلدتى الليلة، وبيدى قرار إبعادى عن الكلية. أعلم أنه مازال يمكننى التظلم، ولكـــن من أقبل على فعل كل هذا، لم يكـــن ليتنازل عنه بهذه الســـهولة. حجم المعاناة والألم لم تكن لتتخيلهـــا، أحلام وطموحات وتطلعات بنيتها على مدار سنوات، هى الآن تتحطم أمام عينيا.

بالأمس تسلمت خطاب الفصل من الكلية عن طريق البريد والسبب «انقطاعى عن العمل خمســـة عشر يومًا متواصلًا» . هكذا كان يدبر لى الدكتور مدحت أزمة جديدة للضغط علىَّ، فبالرغم من حضورى إلى القسم كل يوم تقريبًا، وبالرغم من أننا فى الإجازة الصيفية، ولا توجد أعمال تدريســـية إلا أن الدكتور مدحت كان يســـجل اسمى فى سجل المتغيبين عن العمل، حتى مدام فتحية التى كانت تعلم المكيدة بالتأكيد، فهى المســـئولة عن تسليم ســـجلات الحضور والانصراف، إلا أنها لم

تخبرنى شيئًا.

عندما وصلت البيت دعوت أبى إلى غرفتى. تلك الغرفة البسيطة التى احتضنتنى لسنوات، وهناك بدأت بمحاولة لتمهيد الأمر إليه خوفًا عليه، ثم جعلت أقص عليه الأحداث التى مرت بى خلال الفترة السابقة، وحكايتى مع دكتور مدحت. ما زاد من قلقى أن أبى لم يتلفظ بكلمة وهو يسمعنى إلى أن أنهيت حديثى، ثم شرعت فى البكاء بين أحضانه كطفل عابث أتلف دميته ثم هو يخبر أبيه بما جرى. أظهر أبى تماسكًا لم أكن أتوقعه، وجعل يربت على كتفى، ويحرك أنامله على شعرى، كما لو أننى ما زلت طفلًا فى الرابعة. حتى هدأت وتوقفت عن البكاء، ثم نظرت إلى وجهه، فبدأ كلامه بآيات لله يثبتى بها قائلًا:

«قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ»

وتابع قائلًا:

- إنت ليه يابنى خبيت علىَّ كل ده؟!

أجبت فى خجل:

- كنت خايف عليك وكنت منتظر فرج من ربنا.. مكنتش متخيل إن الأمور ممكن تتعقد بالطريقة دى..

أحسست منه تفهمًا، قبل أن أتابع قائلًا:

- أنا مكنتش متخيل إن فيه شر بالشكل ده.. يعنى بعد ما ياخد

مجهودى يأذينى كمان فى مستقبلى.. أنا عاوزك دلوقتى تدلنى.. أنا كنت غلطـــان فى إن أنا عاندت ولَّا لأ؟؟ ولو كنت غلطان فيه فرصة أصلح الغلط ده؟

رد أبى فى ثقة:

– لا يابنـــى.. عمر مـــا كان الثبات على الحق غلـــط.. بص يابنى أنا هحكيلك على حاجة، يمكن تكون بتسمعها لأول مرة..

انتبهت لأبى، وهو يحكى بتأثر شديد:

– أنا ماساوتش معاشى وســـبت الشغل بمزاجى.. الشركة ساوتلى معاشـــى غصب عنى، لما بلغت عن رئيس القطاع إنه بيختلس من ورا المشتريات اللى كنت اتعينت فيها.. رفضت رشوة كبيرة ساعتها وقلت مأكلش عيالى حرام بعدها ساوولى معاشى.. إنت عارف رئيس القطاع ده اتوفى من كام يوم.. الزملا كانوا بيلموا من بعض علشان مصاريف خارجته مكانـــش حيلته حاجة.. صرف كل الـــلى حيلته على المرض ومات مديون.

سألت فى لهفة:

– طب وحضرتك شايف أعمل إيه دلوقتى؟

فأجاب فى ثقة:

– أول حاجـــة لازم تدعى وتدعى كتـــير.. لأن المظلوم دعوته ربنا مبيردهاش.. بعد كده لازم تاخد بالأسباب، وتخبط على كل باب ممكن

يوصلك للحل.. أوعاك تندم حتـــى لو متحلش الموضوع ومظهرش الحق دلوقتى.. ثق إنك هتلاقى نفســـك فى مكان تانى أحسن من اللى كنت فيه.. لإنك مجتهـــد وربنا مش هيضيعك أبـــدًا، وهفضل طول عمرى فخور بيك.

ظل يثبتنى ويعالج روحى الســـقيمة حتى تعافت. شـــعرت براحة نفسية بعد الحديث معه لا يمكن تخيلها حتى أننى تمنيت لو كنت أخبرته بالأمر منذ بدايته كنت أحتاج حقًا لهذه المساندة المعنوية. اقترح علىَّ أبى بعدها أن نلتقى بأحد أصدقائه القدامـــى يدعى «إمام» ،ابنه يعمل فى الصحافة يتولى قسمًا بأحد الصحف اليومية المشهورة، ومن الممكن أن يشارك الرأى العام قضيتى، مما قد يساعد فى حلها. لم أكن أعلم ما يهم الناس فى قضية باحث سُرق بحثه، وأقصى اهتمامهم لقمة العيش التى غـــدت تكفى الأغلبية بالكاد، إن كانـــت تكفيهم أصلًا ولكن علىَّ أن أطرق كل الأبواب.

تحدث أبى بعدها إلى صديقه، بشىء من ود محفوظ منذ سنين. تبادلا ذكرياتهما وأخبارهما، ثم أبلغه أنه يبغى زيارته بصحبتى، والتحدث إلى الأستاذ محمد ابنه فى أمر مهم، فأكد الرجل ترحيبه بنا، وأخبره أن ابنه فى القاهرة، وسيعود غدًا، حيث يمكننا أن نقابله بعد صلاة الجمعة. طرح على أبى كذلك بعض الاقتراحات، كمقابلة رئيس الجامعة وإخباره بما حدث، ومقابلة أحد المحامين الماهرين لاستشـــارته عن جدوى رفع قضيـــة بهذا الصدد. كل تلك الأفكار كانت تدور فى ذهنى، ولكن هى

محاولة لترتيب الأوراق، بمشاركة أكثر شخص يمكننى أن أثق به.

لأول ليلة منذ فترة طويلة أنعم بنوم هادئ نسبيًا، راحة نفسية سكنت قلبى بعد الحديث المثمر مع أبى، مع استمرار السبب إلا أن درجة تقبله ومعالجته هى التى اختلفت.

فى صباح اليوم التالى، وبعد تناول فطور عائلى هادئ، اصطحبنى أبى إلى إحدى القرى التابعة لمدينة دمنهور. هناك فى المسجد الكبير أدينا صلاة الجمعة، ثم قابلنا عم إمام خارج المسجد واصطحبنا إلى منزله. كان عم إمام طويل القامة مفرود العود بين النحافة والاعتدال. لم يثنى العمر ظهره أو يأتى على بنيانه، أتذكر أنى رأيته بصحبة أبى يومًا أو ربما فى صورة جمعتهما، لم يتغير كثيرًا، ربما بعض الخصلات البيضاء، التى تزين شعره هى التى ظهرت، لتضيف على هيبته هيبة.

كان عم إمام رجلًا مضيافًا، أصر علينا أن نتناول الغداء معه. تبعها جلسة ودية بحجرة ضيوف واسعة، وبصحبة بعض الأقارب، الذين بدا وكأنهم يتجمعون بهذا المكان كل جمعة، ثم قبل العصر بدقائق وصل الأستاذ محمد. شاب ثلاثينى أنيق يبدو أنه ذو شأن بين عائلته وجيرانه. إذ أن الحاضرين جميعًا هبوا وقوفًا عند حضوره، إلا أباه الذى ظل جالسًا إلى أن اقترب ابنه، فقبل يداه ثم صافح الحاضرين وجلس بجوار أبيه الذى بدأ الكلام قائلًا:

- عمك مرزوق من أعز الناس علىَّ.. عشرة عمر.

رد محمد فى أدب:

– أهلا يا عمى.. منورنا والله.

فتابع عم إمام:

– عمك مرزوق كان جاى هو وابنــه – دكتور أيمن– عاوزينك فى حاجة.. خد ضيوفك واقعــدوا فى المكتب.. واللى عاوزينه متتأخرش عنهم.

بالفعل قام الأستاذ محمد امتثالًا لأمر أبيه، ليصحبنا بعيدًا عن زحام الحجرة إلا أن أبى قال:

– روح إنت يا أيمن مع أستاذ محمد..وسيبنى مع عمك إمام.

قمت مع الأستاذ محمد وانصرفنا من المكان، وفى الخلفية صوت أبى يقول:

– والله واحشنى قعدتك وحكاويك يا حاج إمام.

انتقلنا إلى غرفة بعيدة شــيئًا ما بها مكتبة كبيرة ومكتب فخم، جلس مضيفى ثم طلب منى الجلوس وقال فى كرم ورثه عن أبيه:

– تشرب إيه بقى؟

– الحاج قام بالواجب ومفيش مجال لأى حاجة.

– والله لازم تشرب.. إنت شايفنا بخلا ولا إيه.

يبــدو أنه لا مجال للمجادلة هنا وأن عــلىَّ الامتثال. طلبت كوبًا من الشاى فاســتدعى صبيًّا بدا وكأنه أخوه الصغير ثم طلب منه إحضار

الشاى، ثم بدأ يسمع منى قصتى باهتمام بالغ حتى انتهيت من روايتى للأحداث. بدأ يشرح لى طبيعة عمله كمحرر تحت التمرين فى صفحة الرياضة، بأحد الصحف اليومية. بـــدا متفهمًا لقضيتى، ووعدنى بأن يتحـــدث إلى أحد محررى صفحة التحقيقـــات، ليتولى نشر الموضوع. اقترح علىَّ كذلك استغلال مواقع التواصل الاجتماعى، فهى الآن أكثر تأثيرًا من الصحافة المقروءة التى عزف الناس عنها فى الآونة الآخرة.

أحسست من حديثنا أنه لن يكون ذا جدوى، وعلىَّ ألا أعتمد عليه فى شىء. شكرت له حسن تعاونه مع قضيتى، واصطحبت أبى الذى بدا وأن اللقاء قد فتح صفحات الذكريات، لدرجه جعلته ينسى أن الوقت قارب على الغروب، وعلينا أن ننصرف حتى ندرك المواصلات. إلا أن الحاج إمام طلب لنا سيارة مخصوصة أوصلتنا حتى باب المنزل. فى الليل جعلت أدعو ربى أن يفرج همى وأن يظهر الحق عما قريب.

اليوم التالى كان به زخم من الأحداث، حيث ما إن وصلت إلى الكليه حتى قابلت دكتور عبد المنعم مشرفى الآخر فى رســـالتى، التى لا يعلم عنها شيئًا. جعلت أتحدث إليه، أذكره بأنه وقع لىَّ على أوراق البحث. إلا أنه أكد أنه لا يذكر شيئًا اعتذر لى كثيرًا مبررًا ذلك بأن ذاكرته ضعفت، ولا يتذكر ما حدث بالأمس حتى يمكنه تذكر ما حدث منذ شهور.

ذهبت بعد ذلك إلى مكتب وكيل الكلية، الذى رفض مقابلتى، وقال أن الموضوع لدى الشـــئون القانونية، ولا يمكن أن يكون له دخل فيه. دخلت فى حوار مع الســـكرتيرة أنه كيف أكون متغيبًا عن القسم، وأنا

كنت متواجدًا بصورة شبه يوميه بين القسم ومكاتب الإدارة. أخبرتنى أن علىَّ أن أُقدم تظلمًا بشـــأن قرار الفصـــل، ثم هى تهمس إلىَّ بكلمات تنصحنى بها:

– بص يابنى عاوز الأمور كلها تتحل وكل حاجة ترجع زى الأول.. لازم تصلح أمورك مع دكتور مدحت دى نصيحة منى أنا زى والدتك.

بالطبـــع هى تدرك تلـــك الأمور، وربما مر عليها مواقف مشـــابهة، ولكننى كنت قد عزمت على أن أسبح إلى الحق، وإن كان عكس التيار، فإما أصـــل إلى بر الحق، أو أغرقتنى أمـــواج الباطل. فى الخارج كانت أفواج الطلبة الجدد ينهون إجراءات الالتحاق بالكلية وعلى وجوههم ابتسامة أمل لغد أفضل. كما هو الحال لأى وافد جديد، يبغى أن يسطر مجدًا كمجدِ «يعقوب».

فى إدارة الشـــئون القانونية، ذاك المكان الـــذى أصبحت ضيفًا ثقيلًا على سكانه، فقضايايا تشغل أغلب موظفى المكتب. اليوم عند دخولى المكتب، أبلغونى أن مدير الإدارة القانونية يبغى مقابلتى. فى مكتب أنيق مكيف يجلس وحده، يتابع من خلف الباب الزجاجى الزائرين، ويوزع المهام على موظفيه. اســـتأذنوه لدخولى، ثم اتخـــذت مقعدًاموا جهًا له، فنظر إلىَّ فى تعالٍ، ثم بدأ حديثه قائلًا:

– إنت بقى معيد الفارما اللى عامل قلق..

قلت فى ثقة:

– يافندم الحق عمره مـــاكان مصدر قلق.. القلق جاى من هناك من

أهل الباطل.

رد فى سخرية:

– ماشى يا سيدى خلى الحق يرجعك لشغلك بقى.

ثم تابع قائلًا:

– بص يا دكتور أيمـــن.. إنتوا ولادنا وإحنا مش بنحب نإذى حد.. إنت هتقدم تظلم للعودة والتظلم هيتقبل.. كمان الشكاوى اللى متقدمة ضدك هتتحفظ كلها.. أنا أخدت وعد بكده.

سألت فى تعجب:

– مقابل إيه؟

– ولا حاجة.. هتعتذر لدكتور مدحت وتلم الموضوع معاه.. الأمور مش هتتحل غير كده.

– بس لسه فيه شكوى متقدمة ضده..وبيتحقق فيها.

– شكوتك اتحفظت يا دكتور.. مفيش شكوى بتتقدم من غير دليل مادى يثبت صحتها.

انتابتنى رعشة خفيفة إثر هذا الخبر. وكأن بابًا أوصد فى وجهى للتو. هو كذلك بالفعل. لقد كان لدى أمل أن تظهر الحقيقة بهذه الشكوى، التى هى كفيلة بتبرئتى من كل ما هو منســـوب إلىَّ ظلمًا. لم أتفوه بكلمة بعد ذلك، فقط قمت من مكانى، وانصرفت وأنا أسمع تمتمات الرجل يقول:

- فكر فى اللى قلتلك عليه.

انصرفت دون حتى أن أكتب تظلمًا لعودتى للكلية. لا أجد جدوى فى ذلك ومدير الشئون القانونية بنفسه يقدم لى عرضًا أن أساوم على الحقيقة، بدلًا من أن يكون نبراسًا فى البحث عنها.

فى الخارج أوقفنى أحد الطلاب. أذكره جيدًا، عضو باتحاد الطلاب طلب منى أن ألقى كلمة فى لقاء الطلاب الجدد، كما اعتدت على مدار عامين. إلا أننى اعتذرت لظروف هو لا يعلمها بالتأكيد. لكنه كان يلح علىَّ، ويؤكد على أهمية الكلمات البسيطة التى استقبل بها الطلاب، ووقعها عليهم. لكننى اعتذرت مرة أخرى، وأكدت أننى فى ظروف أخرى لن أتأخر فى أمرٍ كهذا، ثم انصرفت من الكلية.

اتجهت إلى مكتب رئيس الجامعة وطلبت مقابلته. بالطبع الأمر بالغ الصعوبة. إن كان يصعب علىَّ مقابلة وكيل الكلية فكيف برئيس الجامعة. محاولة أخرى تبوء بالفشل فقط أترك شكواك، وسوف يطَّلع عليها مدير المكتب، ويحيلها إلى المختص، أو يرفعها إلى رئيس الجامعة ذاته إن استدعى الأمر ذلك.

اعتذرت مجددًا عن العيادة ليخبرنى دكتور نادر أننى فى إجازة مفتوحة إلى أن أجد حلًا لمشكلتى، ومن ثم يمكننى أن أركز فى العمل. كم ألمنى ذلك، ولكنه محقًا بالتأكيد، فأنا أفتقد لصفاء الذهن الذى يمَكِننى من التركيز مع الحالات. قبل أن أنهى المكالمة مع دكتور نادر كان رقمًا ما على

الانتظار، لم يكن مسجلًا فى قائمة الأصدقاء. عندما أنهيت المكالمة كان الاتصال قد انقطع. ترددت فى طلب الرقم. لا أعلم ربما مشكلة جديدة وها أنا أجد الأبواب توصد فى وجهى واحدًا تلو الآخر. لم تمر إلا دقائق حتى أعاد الاتصال، أجبت فى ترقب:

- السلام عليكم..

ليرد علىَّ صوت أنثوى هادئ:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.. دكتور أيمن معايا.

- أيوه يا فندم.. مين معايا؟

- مع حضرتك مريم بدر الدين.. محررة بجريدة «المصرى اليوم»

- أهلًا بحضرتك... خير.

- الأستاذ محمد إمام كان كلمنى بخصوص قضيتك.. وأنا كنت عاوزة أقابلك علشان أستفسر منك على شوية حاجات.

- تمام.. ممكن أقابك حضرِتك فين؟

- يا ريت حضرتك تشرفنى فى مكتبى فى مقر الجريدة فى الإسكندرية.

- إمتى حضرتك بتكونى متواجده؟

- أنا موجودة يوميًا من 9 صباحاً حتى 3 عصرًا

- تمام إن شاء الله أكون عند حضرتك بكره يا مدام مريم.

صمتت برهة، قبل أن تكمل:

-يا ريت حضرتــك تجيب معاك أى صور أو وثائق تثبت كلامك.. علشان نوثق بيها الكلام.. إحم.. بالمناسبة أنا مش مدام.

أحسست بشـــىء من الحرج، فاعتذرت لها بلطف، ثم أنهينا المكالمة. لم أضيع وقتًا تبعت ذلك مباشرة، بالاتصال بعم جميل، واتفقنا على أن نلتقى بعد ساعة من الآن لنذهب سويًا إلى المحامى الذى يعرفه.

فى شقتى جمعت كل ما أملك من أوراق، بالإضافة إلى المعلومات التى أحتفظ بها على جهاز الحاســب الخاص بى. جمعتها كلها على إسطوانة نســختها أكثر من مرة، ثم ذهبت إلى مكتبة مجاورة نســخت الأوراق أيضًا. بعدها قابلت عم جميل، وذهبنا ســويًا إلى مكتب الأســتاذ عماد رفعت المحامى. لم يكن المكان بعيدًا، لكنه كان متواضعًا للغاية. الأستاذ عماد نفسه شــخصية متواضعة جدًا على جميع المستويات، يجلس على مكتب بســيط، يرتدى بدلة زيتية بها خطوط طولية وعرضية، ورابطة عنق خضراء، فى محاولة لفرض أناقة غابت عنه بعيدًا.

لم أكن متفائــلًا عند مقابلته، ولكنه أبدى ثقة لا تتناســب والظاهر أمامــى. وجعل يسرد فى إنجازاته فى إنقــاذ البعض من براثن الإعدام ظلمًا، وكيــف كانت مرافعاته تــرج أروقة المحاكــم، وتثير إعجاب القضاة، ثم فور إخباره بالقضية هو يصفها بالقضية البســيطة. التى لا تســتدعى محاميًا جهبزًا مثله. لكنه سيتواضع ويوافق أن يتولى زمامها. طلب نسخًا من الأوراق، والإسطوانة ليطلع عليها وطلب منا العودة غدًا حتى يمكنه إبداء الرأى القانونى فى القضية.

(20)

لم أبق فى الانتظار طويلًا فما إن أبلغ الساعى الأستاذة مريم بتواجدى بالخارج حتى أذنت لى بالدخول. فى مكتب أنيق مزين بوريقات قصت من الجريدة بها مقالات وتحقيقات تحمل اسمها، ثم هى تجلس على رأس المكتب لم تكن كالصورة التى رسمها عقلى. هى صغيرة فى السن ملامحها طفولية جدًا، شعرها الأسود الناعم يهرب من حجابها غير المحكم، فتعيده خلف الحجاب بحركة تلقائية. ترتدى ملابس كلاسيكة أنيقة، وإن كانت لا تتناسب مع الحجاب.

تابعتنى باهتمام ثم بدأت حديثها قائلة:

- تشرب إيه يا دكتور أيمن؟

- ربنا يخليكى يا فندم..شكرًا.

- لازم تشرب حاجة.

- ممكن شاى.

أرسلت إلى الساعى، ثم طلبت منه كوبًا من الشاى وقهوة باللبن، يبدو أنه شرابها المفضل الذى تعتاد عليه كل صباح، ثم تابعت الحديث معى:

– أنا عاوزة أعرف من حضرتك القصة كلها بالتفصيل.. وأستأذنك إنى هشغل المسجل علشان الكلام اللى ننقله يكون دقيق.

– تمام إن شاء الله.

ثم ضغطت زر بدء التسجيل، وشرعت أقص عليها القصة من البداية بكامل تفاصيلها، وهى تستمع فى تركيز، وتلقى علىَّ بعض الأسئلة. إلى أن أنهيت الحكاية. أبدت سخطها لهذا الظلم. هى تقول أنها تثق فى مصداقيتى. دون حتى أدلة. تؤكد أنها تستمع عادة إلى القضايا فى تشكيك، إلا أنها تصدق كل كلمة قلتها. أعطيتها الإسطوانة، ونسخة من الأوراق، ثم قالت وهى تتابع النسخة الإلكترونية التى سلمتها إياها:

– لازم تكلم محامى كويس..

– أنا رحت لمحامى إمبارح فى كامب شيزار.. بس مش مرتاحله أوى الصراحة.

لم تبعد وجهها عن الحاسب فقط أكملت حديثها قائلة:

– لا مينفعش طبعًا.. لازم يكون محامى كبير، وفاهم فى النوع ده من القضايا.

ثم أخرجت هاتفها وطلبت رقمًا من قائمة الأصدقاء. تحدثت معه لدقائق، فهمت خلالها أنه محامٍ مشهور، وما إن أنهت المكالمة حتى نظرت إلىَّ قائلة:

– أنا كلمتلك الأستاذ طارق الشاذلى المحامى.. أكيد سمعت عنه.. هو دلوقتى فى المحكمة وهيكون متواجد فى مكتبه الساعة خمسة.

– بس... أنا..

– بس إيه... هشـــوفك إن شـــاء الله فى مكتبه فى محطة الرمل الساعة خمسة.

ثم تابعت فى ثقة:

– الجانب الإعلامى بقى بتاعى أنا.. شوف هعملك فيه إيه.

لا أعرف إن كنت أســير فى الطريق الصحيح أم أننى أتورط من يوم إلى آخر. فى مشكلة هى أكبر من سابقتها. لا أعرف حتى إن كانت مريم تبغى مساعدتى بجدية، أم أنها تبحث عن سبق صحفي فحسب. حتى محاميها ذاك الاسم اللامع فى عالم القانون،كيف سيكون التعامل معه– ماديًا على الأقل – فمن المؤكد أنه سيطلب مبلغًا كبيرًا ليباشر القضية.

****

الخامسة والثلث وما زلت فى الطريق. المسافة بين شقتى ومحطة الرمل ليست بالبعيدة، ولكن الطريق يتحرك ببطء شديد، لا نعرف ما السبب. السائق سأل سائقًا مجاورًا له فقال أن هناك حادثة عند مجمع الكليات، واستشهد بصوت قادم من سيارة إسعاف تحاول أن تشق طريقها وسط الزحام. ذلك ما أكده ســائقنا لأكثر من زميل له، قبل أن يخبرنا آخر أن هنــاك موكبًا لأحد الوزراء، ثم هو يصيب كثــيرًا من لعناته على البلد

ومسئوليها. بعد دقائق سأل السائق أحد المارة للتحقق، فقال أن هناك مظاهرة عند جامع إبراهيم. عشر دقائق إضافية قبل أن نمر على منطقة عمل. حيث هم يعلقون إشارة إليكترونية أمام شارع «سوتر» فى وضح النهار تاركين أفواجًا من السيارات فى الانتظار.

انفرج الطريق بعدها لأصل متأخرًا عن موعدى بساعة إلا ربع. فى الخارج أخبرنى موظف الاستقبال أن الأستاذة مريم بصحبة الأستاذ طارق فى المكتب بانتظارى. لا داعى لوصف فخامة المكتب وتجهيزه، يكفى أن أخبرك أنه يفوق مستوى الفنادق الخمس نجوم التى زرتها من قبل. عندما دخلت قابلنى بابتسامة واثقة قبل أن يخبرنى أن الأستاذه مريم شرحت له الموضوع. لم يمجد فى نفسه ولم يحقر من قضيتى. فقط بعض النصائح القانونية وخطوات العمل فى القضية.

فى البداية أكد علىَّ أن أتوجه غدًا إلى الكلية لأقدم تظلمًا لعودتى إلى العمل، قبل انتهاء المهلة القانونية المحددة لذلك، ثم سيتولى أحد المحامين الذين يعملون بمكتبه إقامة دعوى مستعجلة، يتهم بها دكتور مدحت بسرقة البحث، والإضرار بمستقبلى من خلال شكاوٍ كيدية، وأكد أنه سيتابع القضية بنفسه. سلمته كذلك نسخة من الأوراق والإسطوانة، فطلب أحد المساعدين؛ شاب صغير يدعى خالد سلمه الأوراق، وطلب منه أن يجلس معى ليتعرف على المطلوب. لم تتركنى مريم تابعت معى الحديث، ثم هى تؤكد على بعض النقاط التى تعلم أنها قد تفيد بالقضية، ثم أنهينا اللقاء بكثير من الشكر والامتنان للأستاذ

خالد، الذى أخبر أنه علىَّ أن أنجز التوكيل غدًا، حتى يتسنى له إقامة الدعوى.

عند خروجنا من المكتب شكرت الأستاذة مريم كثيرًا على اهتمامها بالقضية، وأخبرتها فى حرج عن قلقى من أتعاب هذا المحامى الكبير، لترد فى ثقة:

– متشغلش دماغك.. المهم يرجعلك حقك إن شاء الله.

– بس يا أستاذة مريم..

قاطعتنى قائلة:

– متنساش بكره تشترى الجرنال.. سلام.

ألقت علىَّ السلام، وانطلقت تاركة كثيرًا من التساؤلات والحيرة على وجهى. عدت إلى الشقة، توضأت، ثم نظرة سريعة إلى المرآه لمحت خلالها شحوب وجهى، التى تخفى كثيرًا من ملامحى بين ذقنى المتناثرة فى إهمال.

بعد الصلاة هاتفت أبى، الذى يتابع باستمرار وعلى مدار اليوم ما أقوم به ثم شرعت فى عمل كوب من الشاى. دق جرس الباب، ثم عم جميل ينادى علىَّ بصوته الجهورى. تركت الشاى على النار وفتحت الباب لأجد الرجل فى انتظارى فى الخارج. طلبت منه الدخول فأبى، حيث يتعجل خروجى معه لنلحق بالأستاذ عاطف المحامى. جذبته للداخل وصببت له كوبًا من الشاى، ثم شرحت له أنه لا جدوى من الذهاب إليه، وهناك من سيباشر القضية. إلا أنه ألح علىَّ ذلك.

انصرفنا بعد كوب الشاى إلى المحامى. حيث تركنا بالخارج أكثر من نصف ساعة، لانشـــغاله مع أحد العملاء. بعد خروجه طلب دخولنا ليشرح لنا أهمية القضية التى يباشرها مع هذا العميل، ثم يتابع قائلًا:

– بص بقى يا سيدى بالنسبة لقضيتك فأنا درست الموضوع.. ولقيت إن لازم يكون معاك أى أصل ممضى أو مختوم للبحث.

أجبته قائلًا:

– مانا قلت لحضرتك إن مش معايا أى أصول.. الأصول كلها عند دكتور مدحت أو فى الدراسات العليا.

فأجاب بابتسامة يصاحبها نظرة دهاء:

– طب أيه رأيك بقى لو ظبطنا موظف من بتوع الدراســـات العليا.. شـــهد معاك باللى إنت عاوزه وختملنا كمان الورق اللى إحنا عاوزينه كأصول.. وساعتها القاضى هيبقى قدامه أدلة دامغة.

أجبت بتلقائية وبدون تردد

– لأ طبعًا أيه اللى بتقوله ده؟! إنت عاوزنى أزَوَرْ.. بتطلب منى أثبت حقى.. بباطل؟

رد فى استبساط:

– مش المهم إن حقك يرجعلك؟

بدأ صوتى يعلو شيئًا ما وأنا أقول:

– أنا مستحيل هعمل كده.. حتى لو كانت دى الطريقة الوحيدة إنى أرجَّع حقى..

ثم قمت من مكانى، ونظرت إلى عم جميل قائلًا:

– ياللا يا عم جميل..

فقال عم جميل:

– استنى بس يا دكتور أيمن.. مش نسمع للآخر.

فتابعت:

– هتيجى معايا يا عم جميل ولا لأ؟

قام عم جميل الذى سبقته للخارج. فى حين ظل يتمتم هو بكلمات الاعتذار إلى الأستاذ عاطف، ثم تبعنى وجعل يعاتبنى على إحراجى للرجل الذى يبغى مصلحتى، ثم تابع فى دعابة:

– إنت عارف لو أنا.. أقسم بالله كنت جبتله كام شاب من المنطقة علقوه.. أو جابوهولى فى شوال.

عندما عدت إلى المنزل جعلت أدعو وأتضرَّع إلى الله أن يثبتنى على طريق الحق ويلهمنى الصواب، على الرغم من المعاناة التى أقاسيها فإن أكثر ما يريحنى فى هذه المحنة أنها قربتنى من الله.

****

فى الصباح أيقظتنى الأستاذة مريم، لتذكرنى بعمل التوكيل. كررت

لها تخوفاتى المادية وأننى لن أقبل أن يدفع أحد عنى الأتعاب، لتخبرنى أنه لن يتقاضى أتعابًا عن قضيتـــى، فبعض القضايا المثيرة قد يكون لها مردودًا آخر غير مادي، وأن ذلك ينطبق على قضيتى، ثم هى تطمئننى، وتؤكد أنها تحاول مساعدتى لإيمانها بقضيتى ليس إلا.

لن أتحدث عـــن جولات المرور بـــين المكاتب فى مصلحة الشـــهر العقارى لإنهـــاء التوكيل. من زار مصلحة حكومية من قبل لينهى أى إجراءات يعرف جيدًا ما أقصده. المهم أنها انتهت وسلمتها إلى مندوب مكتب الأســـتاذ طارق الذى كان بانتظارى. كان الوقت قد تأخر، لذا أسرعت الخطى إلى الكلية، إلى أن وصلت إلى الشـــئون القانونية. بعد دخولى بدقائق أخبرنى أحد الموظفـــين أن المدير يطلبنى للتو، دخلت مكتبه فبدأ كلامه مباشرة:

– إنت مدرك خطورة اللى إنت بتعمله ده؟

لمحت الصحيفة فى يديه لأفهم ما يرنو إليه، فأجبت على الفور:

– ما عنديش اللى أبقى عليه..

اعتدل فى جلسته، ثم قال:

– بـــس إنت كده قضيت على كل المحاولات الودية اللى كانت ممكن تحصل.

تابعت فى تجاهل لكلامه:

– أنا جاى النهارده أعمل تظلم العودة.

– ومالو.. حقك.. اكتب التظلم وسيبه مع الأستاذ «على» بره.

عند كشك الجرائد فتحت صفحة التحقيقات بالصحيفة لأجد تحقيقًا طويلًا تحت عنوان عريض «بالمستندات.. جرائم سرقة من نوع آخر» وتحته عنوان أصغر «أستاذ بكلية الطب يسرق مجهود باحث بالكلية وينسبه لنفسه» .انتابنى للحظات شعور بالخوف من هذه الخطوة، التى أحسب أنها جريئة جدًا، ومحفوفة بالمخاطر. لم يتعرض التحقيق إلى الأسماء مباشرة ولكنه أشار إليها بالبنيان.

لم يتوقف الهاتف عن الرنين،فقد تلقيت اتصالًا من دكتور نادر، حذرنى خلاله من هذه الخطوة، وقال أن الدكتور مدحت ليس شخصًا سهلًا يمكنه أن يمرر هذا الحدث بسهولة، ثم بعض المحامين يعرض علىَّ المساهمة فى القضية، بالإضافة إلى العديد من الأصدقاء القدامى بعضهم لم ألتقيه منذ سنوات. الجميع يعرض علىَّ المساعدة، ويؤكد مؤازرتى فى قضيتى تعجبت لكل هذا الكم من المتابعين للجرائد، إلا أن أحمد صديقى أخبرنى أن الخبر متداول منذ الصباح بالأسماء على صفحات «الفيس بوك» .

فى عجالة فتحت «الفيس بوك» ، ونفضت عنه غبار الهجر، ثم تابعت تردد الخبر على صفحات «الفيس بوك»حيث بدأت بنشره فتاة تدعى «أسماء بخيت» .لا أدرى ربما هى زميلة لمريم، أو أحد المتعاطفين مع القضية. العديد من الصفحات ذات الرواج نشرت الخبر دون ذكر مصدر، وكثير من الأصدقاء نشر الخبر على صفحته الشخصية.

اتصلت بالأستاذه مريم، التى صاحت قائلة:

– إيه رأيك بقى يا سيدى فى اللى أنا عملته..

أجبت فى قلق:

– أنا مش هكدب عليكى أنا قلقان جدًا من ساعة نشر الموضوع..

ردّت فى ثقة:

– تقلق من أيه ده هو اللى هيموت.. إنت تعرف إنه كلمنى من شوية!

– هو مين؟

–دكتور مدحت.. بيقوللى أقسم بالله لتندمى على اللى إنتى عملتيه..

قلت لها فى قلق بالغ:

– يا نهار.. طب وإنتى مش خايفة على نفسك؟

– متقلقش.. بنقابل من الأشكال دى كتير.. ولا بيهمنا.

– بس صحيح مين أسماء دى؟

– يابنى إنت بيدخل عليك الحركات دى.. ده أكونت أنا عاملاه لزوم الشغل.. وكمان بعت لأصحابى اللى ماسكين صفحات مشهورة ولها متابعين كتير خليتهم نشروا الخبر..

قلت فى امتنان:

–أنا مش عارف أشكرك إزاى... يارب إن شاء الله ييجى بنتيجة

– إن شاء الله خير.

(21)

عادة الأيام الصعبة أنها تمضى ببطء، إلا أن الأيام التالية، وعلى الرغم من صعوبتها إلا أنها كانت تمر بسرعة كبيرة. فوقوف زملائى إلى جوارى كان خير سند. إلى جانب مريم التى كانت تشد من عزمى، وتؤكد دائمًا أنها على ثقة من أنى سأكسب القضية، وأن الحق سيعود إلى صاحبه. أيضًا أبى الذى كان يتصل بى يوميًا يثبتنى، ويمسح عن قلبى همومه بكلماته الثابتة ودعواته الصادقة، ويحثنى على التقرب من الله. كل هذا هون علىَّ صعوبة تلك الأيام.

فى اليوم التالى لعمل التوكيل، قام الأستاذ خالد برفع دعوى مستعجلة فى المحكمة. قدم فيها إتهامًا مباشرًا للدكتور مدحت بسرقة البحث، ونسبه لنفسه. حددت المحكمة بعد الإطلاع على أوراق القضية موعدًا للجلسة الأولى بعد أسبوعين.

السبت قبل الماضى، وبعد رفع القضية بأيام بدأت الدراسة تنتظم فى الكلية، كم تمنيت العودة إلى عملى بين الطلاب فى الكلية، الجميع يتحدث عنى. لا تخلو أحاديث الطلبة أو الحوارات الدائرة بين أعضاء هيئة التدريس عن القضية، حتى أننى عندما أمر من الكلية أرى البعض يشيرون إلىَّ، وأحيانا أسمع اسمى يتردد بين أُناس لا يعلمون من أكون.

مريم كانت تتصل بى يوميًا تطمئن على سير الأمور، وتشاركنى الرأى. عرفت بعد ذلك أنها ابنة رجل الأعمال المشهور سالم بدر الدين. على الرغم من نسبها إلى أسرة ثرية، إلا أنها مهتمة فى عملها بالفقراء. أغلب تحقيقاتها الصحفية تهاجم الغلاء والجشع والاحتكار، وتنضم فيها إلى صفوف البسطاء والمظلومين. ما يميزها أكثر أن تحقيقاتها جريئة وقوية. هى كذلك تحب عمل الخير؛ تشترك فى العديد من الجمعيات الخيرية، ودور الأيتام. شخصيتها بسيطة وتتعامل مع الجميع بود وتواضع. الثلاثاء الماضى اتصلت بى مريم فى الخامسة بعد العصر قائلة:

– دكتور أيمن.. إنت فين دلوقتى؟

– فى شقتى.. فى كامب شيزار.

– ماشى .. إنزل قابلنى دلوقتى يلا.

– خير بس . أيه اللى حصل؟

– فى أخبار مهمة.. عاوزة أقولهالك.

– طب أقابلك فين؟

– قابلنى فى أى كافيه قريبة منك.. بس علطول، مش عاوزة أستنى كتير.

غيرت ملابسى سريعًا ونزلت، التقيتها فى المطعم الذى اتفقنا عليه. بالفعل وجدتها فى الانتظار، ألقيت عليها التحية وجلست، فقالت:

– بص بقى يا سيدى.

نظرت إليها باهتمام، فى حين أكملت قائلة:

– دكتـــور مدحت كان تعاقد على بيع حقوق الـــدوا اللى فى البحث لشركة أدوية كبيرة ليها فروع فى العالم كله ومقرها فى ســـويسرا.. بعد الشـــوشرة الإعلامية اللى حصلت.. الشركة وقفت التعاقد معاه لحين التأكد من حقوق الملكية.

– وإنتى عرفتى المعلومات دى منين؟

– عيب يا باشا.. الصحفى مش بيتسئل عن مصادره.

ثم تابعت قائلة:

– إن شاء الله يرجع لك حقك فى البحث.. وتبقى تبيع إنت حق الدوا وتوصل للعالمية بقى.. بس متبقاش تنسانا.

– مش عارف أشكرك إزاى على اهتمامك يا أستاذة مريم.

– لا شكر على واجب يا عم.. بعدين أيه أستاذة مريم دى.. محسسنى إنى عندى خمسين سنة.. اسمى مريم عادى والله.

بعدها توجهنا سويًا إلى مكتب الأستاذ طارق المحامى، والذى أخبرنا أنه لابد لى أن أبحث على أية أصول للأوراق الموجودة معى. وأن ألتقى الشهود وأتأكد من وقوفهم فى صفى.

أوصلتنى بعد ذلـــك مريم إلى مكان ســـكنى. عرضت علىَّ خلال

الطريق أن تساعدنى للظهور فى أحد البرامج التليفزيونية، ونشر الموضوع بصورة أوسع. إلا أننى فضلت أن نركز فى القضية المقامة وعدم عمل أى خطوة جديدة قبل الحكم القضائى. احترت مع هذه الشخصية. لا أدرى كيف أرد لها كل هذا المعروف. شكرتها كثيرًا، وأنا أعرف أن كل كلمات الشكر لا توفيها حقها.

****

الخميس توجهت إلى الكلية فى الصباح، وهناك فى معمل حيوانات التجارب قابلت عم رضا الذى لقينى مهللًا:

- ياه يا دكتور أيمن.. عاش من شافك.

- معلش.. مشاغل بقى يا عم رضا إنت عارف.

ثم تابعت قائلًا:

- أنا واقع فى مشكلة يا عم رضا ومحتاج مساعدتك.

رد فى تعجب:

- خير يا دكتور أيمن.. قول وأنا أكيد مش هتأخر عنك.

حكيت له ما حدث، وكيف تم سرقة البحث من قِبَل دكتور مدحت. وكيف كان قرار فصلى من الكلية. والأحداث التى تبعت ذلك. علامات التأثر بدت على عم رضا وقال فى تلقائية:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. الناس باعت ضمايرها ولا إيه.. حسبنا

الله ونعم الوكيل.

– أنا محتاجك بقى يا عم رضا تشـــهد معايا فى المحكمة التلات اللى جاى باللى إنت تعرفه.. إنى كنت معاك من أول البحث، وكنت بتابع حيوانات التجارب وكده.

– يا سلام يا دكتور أيمن.. إنت تؤمر طبعًا.

– يعنى هتقف جنبى يا عم رضا فى المشكلة دى؟

– طبعا يا دكتور أيمن.. ودى عاوزه كلام.

خرجت من عند عم رضا، والرضا يملأ وجهى. شهادة عم رضا من أهم الأمور التى تساعدنى فى القضية، فهو أكثر شخص يعلم من تابع البحث من البداية للنهاية. عند باب المعمل لقيت إسلام صديقى الذى كان فى طريقه خارجًا من القسم، وعندما لقينى أقبل علىّ قائلًا:

– أيمن.. عامل أيه يابنـــى؟ وأيه اللى وصل الموضوع لكده؟ طمنى عليك.

– والله يا إســـلام الأمور بتتطور كل يوم عن التانى، ومكنتش أتمنى الأمور توصل لكده.. بس مكنتش أتوقع إن الظلم يوصل لكده برضو.

– يا عم متقلقش.. إنت على حق.. وربنا مع الحق. كل الشـــباب فى القسم معاك، وأنا أولهم.. ولواحتجت أى حاجة قولى.

– ربنا يخليك يا إسلام أنا فعلًا محتاج منك خدمة.. أنا عاوزك تشهد معايا فى المحكمة باللى إنت تعرفه..

رد إسلام بدون تردد:

– من عنيا يا أيموون.. لازم أقف جنبك فى مشكلتك دى.

– لو حاسس إن الموضوع ممكن يسبب لك مشاكل.. بلاش.

– لا يا عم.. إنت بتقول إيه.. كان ممكن أنا اللى أبقى مكانك.

– ربنا يخليك يا إسلام.

احتضنته بتأثر، وودعته، بعدما وعدنى أن يلقانى فى المحكمة، ودعا لىّ أن يعود ألىَّ حقى.

توجهت بعد ذلك إلى قسم الدراسات العليا. التقيت رئيس القسم الذى أكد أنهم لم يجدوا أى أوراق تسجيل باسمى. وأن الأمر ما زال قيد التحقيق، ولا جديد حتى الآن. تركت له رقم هاتفى، ورجوته أن يتصل بى إذا ما تم العصور على أية أوراق للبحث.

****

قضيت الليلة الماضية فى سهد الانتظار. لم أنعم بالنوم إلا لدقائق. وكيف ينام من ينتظر مصيره. كان والدى قد جاء بالأمس ليبقى إلى جوارى حتى يوم الجلسة. اليوم وبعد الثالثة عصرًا كنت على موعد مع الأستاذ طارق المحامى. أصر والدى على الذهاب معى، وهناك كانت مريم فى الانتظار. عرفتها بوالدى، فسلمت عليه بحرارة، وتعاملت معه بود شديد.

دعانا الأستاذ طارق للدخول، ودعا أيضًا الأستاذ خالد. أطلعنا الأستاذ خالد على الأوراق التى سلمها للنيابة، وكذلك على الشهود الذين طلب شهادتهم، فيما أكد الأستاذ طارق أسفه لضعف الموقف، لأن الأوراق التى نعتمد عليها كلها نسخ، وأن الأوراق الرسمية التى قد يقدم الدكتور مدحت بعضًا منها ستكون أقوى حجة لدى القاضى من شهادة الشهود وأنه بناءً على مجريات سير الأمور فى الجلسة قد يطلب التأجيل.

كان الأستاذ طارق شديد الصدق معنا، لم يخدعنا ولم يبسط الأمور. نظرت إلى مريم التى نظرت إلىَّ بابتسامة تحاول أن تدارى بها قلق أصابها، وتشد بها من عزمى. فيما أمسك والدى بيديا وجعل يثبتنى.

فى الخارج وبعد صمت لدقائق استأذنت من مريم، فردت:

- استنى يا دكتور أيمن ثانية.

- خير.

- إنت قلقت ولا إيه؟

- لازم أقلق.. إنت شفتى اللى قاله أستاذ طارق.

ردت بابتسامة أمل:

- طب أيه رأيك بقى إنك هتكسب القضية.. ومن أول جلسة.

سكتت برهة ثم أكملت قائلة:

– إن شاء الله يعنى.. وهتقول مريم قالت.

حاولت أن أدارى ضعفى بابتسامة مصطنعة وقلت:

– إن شاء الله.

ثم استأذنت فى الانصراف. على باب المكتب سمعت مريم تنادى علىَّ مرة أخرى:

– أيمن.. أحم.. قصدى دكتور أيمن.

– نعم..

– متنساش تحلق دقنك قبل الجلسة.. وتفائل يا عم وفكها شوية.

أجبتها بابتسامة خرجت من قلبى المثقل بالهموم. عدت بعد ذلك إلى الشقة، وهناك وجدت بعض الزملاء الذين أتوا ليهونوا علىَّ شدة هذا اليوم. جعلوا يتسامرون ويحكى كلًا منهم نوادره والضحكات تملأ الشقة. مر على كذلك عم جميل وأبو محمود. جلسا لبعض الوقت، بعدها دعا ان يوفقنى الله وانصرفا.

خرجت مع والدى صلينا العشاء فى المسجد المجاور. جلست بعد الصلاة أدعوا الله وأتضرع إليه، ونزلت بعض عبرات من عينى. بعد دقائق جاء أبى وظل يربت على كتفى وهو يردد «والله.. لن يضيعك الله أبدًا» . قمنا سويًا وعدنا إلى الشقة لأجد العديد من محاولات الاتصال على هاتفى من الأستاذ طارق المحامى. اتصلت به بسرعة ليرد:

– إيه يا أيمن فينك؟ فى مفاجأة جديدة هتغير من سير الأمور تمامًا..

****

(22)

فى قاعــة المحكمة وقف وفود من البــشر ينتظرون القول الفصل فى قضاياهم. كم هى صعبة مهنة القضاء، وأنت مفوض من قاضى السماء لترسى العدالة فى الأرض. لقد كنت أتابع المشهد فى مهابة، وأنا أدخل قاعة محكمة للمرة الأولى فى حياتى، وأتمنى أن تكون الأخيرة. نظرت إلى «الرول» لأجد قضيتى فى المقدمة يســبقها فقــط قضيتان. بدأت الجلسة بحضور القضاة على المنصة، ثم بدأ الحاجب ينادى على القضايا بالترتيب. لم يمر الكثير من الوقت حتى ســمعت رقم القضية الخاصة بى قمت مفزوعًا، وجعلت دقات قلبى تتسارع. بدأ القاضى بالقول:

– القضية رقم 323 بخصوص سرقة حقوق الملكية الفكرية الخاصة بالباحث أيمن مرزوق عبد الهادى.. فين أيمن؟

أجبت فى قلق بادٍ:

– أفندم

ثم قام الأستاذ خالد ليعلق:

– خالد الرشيدى المحامى.. حاضر مع المدعى.

وسلم بطاقة التعارف الخاصة به والتوكيل إلى القاضى الذى تابع قائلًا:

– ضد الدكتور مدحت محمود يونس.. دكتور مدحت موجود؟

ثم نظر إلى قاعة المحكمة. لم يكن الدكتور مدحت متواجدًا. فقط قام أحد المحامين الكبار قائلًا:

– الأستاذ عبد الحميد الباز المحامى.. حاضر عن المدعى عليه.

وسلم توكيله وبطاقة التعارف الخاصة به إلى القاضى، الذى جعل يراجع أوراق القضية، ويتحقق من بطاقات التعارف، ثم وجه حديثه إلى المحامين:

– فيه أى أوراق إضافية عاوزين تزودوها للقضية؟

ابتسم الأستاذ خالد الذى أخرج مجموعة أوراق من حقيبته، وسلمها للقاضى، فاطَّلع عليها سريعًا قبل أن يعطى الإشارة إلى الحاجب كى ينادى على الشهود.

– الشاهد الأول.. إسلام يسرى البنا.

دخل إسلام زميلى بالقسم والذى طَلَبتُ شهادته ليقف أمام القاضى فى تردد. قبل أن يطلع القاضى على إثبات شخصيته، ويبادره بالقسم المعروف:

– قول والله العظيم أقول الحق..

جعل إسلام يمسح عرقه، ثم هو يرد فى تلعثم:

– والله العظيم.. آآآ.. أقول الحقيقة.

– تعرف أيه عن موضوع البحث.. هل عندك معلومات؟

رد بكلمات متقطعة يشوبها الخوف والتردد:

– أنا.. أنا معرفش حاجة عن الموضـــوع ده.. معرفش حاجة.. كل واحد فى ال.. آ.. القســـم بيبقـــى له مشرفين غير التانـــى.. وكل اللى أعرفه.. آآ.. معرفش غير إن دكتور مدحت هو.. هو اللى كان المشرف بتاع أيمن.. بعد ما دكتور عادل..توفى.

وجه الأستاذ خالد السؤال إلى إسلام بعدما استأذن القاضى:

– يعنى إنت مكنتش تعرف بموضوع البحث اللى كان محور رســـالة أيمن قبل وفاة دكتور عادل؟

ليرد إسلام بـ:

– لأ..

ذهلت لموقف إسلام زميلى، وهو الذى أكد مرارًا مساندته لىَّ فى قضيتى. لم أتخيل لحظة أن يتخلى عنى وهو يدرك جيدًا أننى صاحب هذا البحث. لمحته يسترق النظر إلىَّ وهو يخرج من قاعة المحكمة، ثم يطأطأ رأسه إلى الأرض فى خجل، ثم تابعت فى أسى والحاجب ينادى:

– الشاهد الثانى.. رضا دسوقى بدر.

دخل عم رضا القاعة فى ثقة ليقف أمام القاضى يسلمه بطاقته، ثم يقسم أنه سيشهد بالحقيقة. وجه القاضى سؤاله مباشرة:

– إنت شغال فى المعمل بتاع حيوانات التجارب بتاع كلية الطب.. مين كان يبتابع معاك التجربة بتاعة البحث ده؟

لم يتردد عم رضا. قال مباشرة كأنما يعلم ما سيقول جيدًا:

– يا باشا الدكتور أيمن كان بييجى يتابع الأرانب ويشوف النتايج.. فى آخر كام يوم.. لكن اللى كان معايا من أول التجربة لحد آخرها هو دكتور مدحت.

صعقت لشهادة عم رضا. الرجل الذى كنت أحسبه طيبًا وعلى سجيته. الرجل الذى كان يردد كل مرة حكاياته مع هؤلاء الذين باعوا ضمائرهم. اليوم أرددها أنا «حسبى الله ونعم الوكيل» صحت بها فى وجهه وتابعت:

– حرام عليك يا عم رضا.. هى دى شهادة الحق اللى حلفت عليها.

نظر القاضى إلىَّ، وصاح قائلًا:

– أنا أذنتلك تتكلم.. لو اتكلمت مرة تانية من غير إذن هخرجك بره القاعة.

ثم توجه القاضى إلى المحامين بقوله:

– حد عاوز يوجه أى سؤال للشاهد

نظر الأســتاذ خالد فى أوراق القضية بثبات، فى حين ابتسم الأستاذ عبد الحميد ابتســامة خبيثة قبل أن يجيبا بالنفى. انصرف عم رضا دون أن ينظر إلىَّ.

أتعجب من ثباته على الباطل. نظرت إلى الأســتاذه مريم فى انهزام، لتشــير إلىَّ فى ثقه أن أصبر وألا أقلق. لم يكن القلق هو ما يســيطر علىَّ فى هــذه اللحظة ولكنها الصدمة. فحتى إن ظهرت الحقيقة فى النهاية، فألمى وصدمتى فى إسلام وعم رضا لا توصف. ثمة أشياء ثمينة ولكنها تسقط على الأرض لتنكسر فلا تعود لسابق عهدها أبدًا. حقًا إن حواسنا فى التمييز بين الخبيث والطيب محدودة جدًا.

بعد ذلك نادى الحاجب على الشاهد التالى:

– الشاهد التالت.. فتحية رياض أمين.

نادى أكثر من مرة قبل أن يعلن عدم حضورها. سجل القاضى غياب مدام فتحية عن الجلسة، التى لابد وأنها تهرب من قول الزور، لتتوارى عن مصير إسلام وعم رضا، ثم نادى الحاجب:

– الشاهد الرابع.. أدهم محمود العشرى.

تقدم دكتور أدهم إلى القاضى، وســلم بطاقة الهوية قبل أن يقســم كسابقية أن يدلى بالحقيقة، ثم يسأله القاضى:

– دكتور أدهم.. تعرف إيه عن البحث اللى هو موضوع القضية؟

ليرد فى ثقة:

– أنا ماســك لجنة أخلاقيات البحث العلمى بكلية الطب.. ولازم كل الأبحاث بتمر علىَّ علشان تاخد موافقة اللجنة.. ولأن البحث ده تحديدًا كان عامل لغط فى اللجنة.. ورجعناه أكثر من مرة لتعديل خطة البحث فأنا فاكره كويس.. أيمن طالب مجتهد وتعب جامد فيه وحرام إن تعبه ده يروح هدر.

بدأت حوارات جانبية تتردد فى أنحــاء القاعة، فطرق القاضى على مكتبه وقال:

– مش عاوز صوت فى القاعة..

ثم نظر إلى دكتور أدهم، وتابع قائلًا:

– يعنى إنت بتقول إن أيمن هو صاحب البحث؟

فرد فى ثقة:

– بدون جدال.. أنا متأكد من كده.

عادت إلىَّ ابتسامتى، قبل أن يطلب الأستاذ عبد الحميد توجيه السؤال إلى الدكتور أدهم، فسمح له القاضى فقال:

– دكتــور أدهــم حضرتك كان فيــه خصومة بينــك وبين دكتور مدحت.. مش كده؟

فرد دكتور أدهم:

– مش خصومة ولا حاجة. دكتـــور مدحت فى أحد الأبحاث كان بيخالف تعليمات اللجنة.. وأنا قدمت شكوى ضده للشئون القانونية ولسه نتيجة التحقيق مظهرتش.

فتابع:

– سيدى القاضى من الواضح أن الشاهد على غير وفاق مع موكلى.. ولذا أطالب بعدم الاعتداد بشهادته.

فرد القاضى:

– أى طلبات تانية من المحامين.. قبل ما أنهى الجلسة.

ليرد الأستاذ خالد:

– فاضل شاهد يافندم..قدمنا اسمه النهارده.

نظر القاضى إلى أوراق أمامه قبل أن يقول:

– نادى يابنى على الشاهد الأخير.

ليصيح الحاجب:

– الشاهد الخامس.. دينا محمد ثابت.

بعض اللحظات لا يمكن وصفها، وإحساسها يكون ملكك وحدك لدرجـــة تجعل من الصعب على المتابع أن يتخيلها. تلك اللحظة عندما رأيتها تدخل قاعة المحكمة، بفستانها الأسود الداكن، ووجهها المضىء،

بعد غيابها عن أنظارى لشـــهور. جعل قلبى يدق مهرولًا كأنما تتسابق دقاته، وابتسامة تملأ ثغرى، إنها هنا اليوم من أجلى. وقفت أمام القاضى تقســـم بأن تقول الحق، ثم هى تؤكد أنها عادت من الخارج فور السماع عن قضيتى، لا لشىء إلا لإظهار الحقيقة:

– أنا كنت باحث مســـاعد مع دكتور أيمن.. والأوراق اللى المحامى ســـلمها لحضرتك النهارده دى كانت النسخة اللى أنا كنت أحتفظت بيها من البحث.. وفيهم الأصل بتاع موافقة لجنة الأخلاقيات.. دكتور أيمن تعب جدًا فى البحث وكان بيتفانى فى العمل فيه.. بذل مجهود غير عادى وأنا بأكد إنه لحد نهاية البحث مكانش دكتور مدحت له أى دور فيه.

نزلت شـــهادة دينا كالصاعقة على الأستاذ عبد الحميد، الذى تسمر مكانه فى حين اكتفى القاضى بالأوراق المقدمة إليه، وشـــهادة الشهود، وأرجى الحكم لنهاية الجلســـة. جعلت أتابع دينـــا فى إعجاب إلى أن اتخذت موقعًا فى طرف القاعة، ثم نظرت إلىَّ وابتســـمت، فى حين تغير وجه مريم، التى حاولت الحفاظ على ابتســـامتها. مزيج من المشـــاعر المتضاربة تنتابنى بين لحظة والأخرى إلى نهاية الجلسة. حيث بدأ القاضى يتلو ما توصلت إليه هيئة المحكمة. عندما وصل إلى قضيتى قال:

«قضية 323.. بعد الاطلاع على المستندات والأوراق وسماع شهادة الشهود.. استقر فى قرارة المحكمة أن البحث موضوع الدعوى وعنوانه «دراســـة دور عقار مســـتخرج من عوامل النمو بالصفائح الدموية فى

علاج الجروح صعبة الالتئام"دراسة تجريبية فى الأرانب» هو حق أصيل للباحث أيمن مرزوق عبد الهادى، وأن الدكتور مدحت محمود يونس قد اعتدى عليه بسرقة البحث، ونسبه إلى نفسه. لذا فإن المحكمة انتهت إلى حكمها الآتى:

– حكمت المحكمة بإثبات حقوق الملكية الفكرية للبحث موضوع الدعوى للمدعى.. وإلزام المدعى عليه بالمصروفات وأتعاب المحاماه»

****

الفصل السابع

النهاية

النهايات الواقعية ليست دائما ســـعيدة وإن كانت النهايات السعيدة تروق لى

(23)

«إنتى إزاى حلوة كده»

قلتها لها فى تعليق على الصورة الجديدة، التى نشرتها على الإنستجرام. ها هى تطل من جديد بابتسامة غابت عنها كثيرًا، إلا أنها عادت لتشرق من جديد. لم أعد أخشى أن أعلن ذلك جهارًا فى تعليق لها على «الفيس بـــوك» ، أو أتوارى بوصف إعجابى بها من خلال رســـالة إليكترونية فحسب. بالأمس فقط قابلت أبيها، وأبديت رغبتى فى أن أشارك دينا نصف دنيتى، لأكمل بها نصف دينى.

بعد صـــدور حكم المحكمة تجمـــع الكثير حـــولى يهنئوننى بظهور الحقيقـــة، ولكن عقلى وذهنى كانوا فى مكان آخر. جعلت أبحث عنها فى القاعة فرأيتها تنصرف فى هدوء. حاولت أن أخرج من وسط الحشد المحيط لأتحدث إليها، لأجد من يجذبنى، أدرت وجهى لأقابل دكتور نادر الذى قال:

– مبروك يا أيمن يابنى.. أنا سعيد بيك جدًا.. إصرارك وصمودك ده نموذج لأى شاب.

ليس وقته بالتأكيد. أجبته بابتسامة مجاملة، وبعض كلمات الشكر، ثم استأذنت الجميع وتبعت دينا خارج القاعة، لأراها تركب سيارة كانت بانتظارها بالخارج وتبتعد. استدرت لأرى مريم فى مواجهتى.

فى الثامنة والنصف مساءً دخلت دينا مطعم الفندق، حيث تلقت اليوم اتصالًا هاتفيًا من الآنسة مريم تطلب مقابلتها بفندق «سان جيوفانى» فى المساء. كانت قد قابلت مريم مرتين من قبل؛ بالأمس عند المحامى واليوم فى المحكمة إلا أنها فوجئت باتصالها اليوم، والذى تحدثت من خلاله معها حديثًا وديًا كأنها تعرفها منذ سنين، وطلبت منها لقائها فى المساء.

دخلت دينا المطعم وسألت النادل عن الآنسة مريم، فأشار لها على طاولة فى أحد أطراف المطعم. عندما وصلت الطاولة وجدتها خالية، فنظرت إلى النادل الذى أشار مؤكدًا أنها هى، ثم اقترب منها وقال إن الآنسة مريم قد حجزت هذه الطاولة اليوم، وربما هى على وصول. جلست دينا دقائق قبل أن يسترعى انتباهها الأزهار التى تتوسط الطاولة. الغريب أنها لا يوجد مثيلها فى قاعة المطعم، ثم هناك بطاقة وسط الزهور، فتحتها على عجل لتجد مكتوبًا عليها:

«بحبك... تتجوزينى؟..»

لم تستطع أن تخفى ابتسامة ملأت فاهها، رغم محاولاتها أن تواريها فى خجل عندما رأتنى أمامها. طلبتُ منها الجلوس فردت بابتسامة، فتابعت قائلًا:

– أفهم من كده إنك موافقة؟

ردت فى خجل:

– موافقة على أيه بالظبط؟

فأجبت فى مداعبة:

– موافقة إنى أقعد..

قلت ذلك، وأنا أجلس على الكرسى المواجه لها، ثم تابعت:

– بصى بقى يا ستى.. أنا المرة دى عمرى ما هسيبك تضيعى منى أبدًا.. حتى لو رحتى «تشاد» حتى مش «أيرلندا» .. أنا ما صدقت إنك رجعتى.

ظل الحديث بيننا لقرب الساعة. حكيت لها ما عانيته الفترة السابقة من أحداث، وكيف كنت أحتاجها إلى جوارى فى هذه المحنة. كذلك قصت علىَّ كيف كان الوضع صعبًا فى أيرلندا فى البداية. مما جعلها تعزف عن الحياة الاجتماعية حتى «الفيس بوك» . كانت قد توقفت عن متابعته حتى ذلك اليوم، الذى عاد فيه أنس من العمل ليخبرها أن مواقع التواصل الاجتماعى كلها تتحدث عن هذا الشاب الذى قابله معها فى الكلية، ثم قص عليها القضية التى شغلت الرأى العام الفترة الماضية، فأصرت دينا أن تعود مصر لمساندتى. كما كنت لها سندًا فى أيامها الصعبة، حال وفاة والدتها وفى دراستها.

عند عودتها مصر ساعدها والدها فى الوصول إلى مكتب الأستاذ طارق الشاذلى المحامى، لتقدم له ما تملكه من أوراق، وشهادة من شأنها أن تغير من مسار القضية، فقد كان لديها الأصل الوحيد الذى

لم يصل إلى يد الدكتور مدحت؛ أصل موافقة لجنة الأخلاقيات، الذى أعطيتها إياها وسط نسخة البحث، عندما طلبت منها المشاركة فى أعمال البحث. نبههم ذلك إلى محادثة الدكتــور أدهم رئيس لجنة أخلاقيات البحث بكلية الطب، والذى يشــهد الجميع باحترامه ونزاهته ليكون شاهدًا فى القضية.

تمت... 16 /8 /2017

عن الكاتبين:

د. خالد عوض البسيونى

dr_kh_alex@yahoo.com

د. رامى عوض البسيونى

dr_ramy_alex@yahoo.com

مواليد 1985/ 10/ 1 بمحافظة البحيرة

حصلا على بكالوريوس طب الإسكندرية 2008

حصلا على ماجستير طب وجراحة العيون كلية الطب جامعة الإسكندرية 2013

حصلا على شهادة الزمالة المصرية فى طب وجراجة العيون 2017

عضوا الجمعية الأمريكية للمياه البيضاء وتصحيح الإبصار

عضوا الجمعية الرمدية المصرية

لهما كثير من الأبحاث والمقالات العلمية المنشورة فى مجال طب وجراحة العيون